70 الرصافي
عاما على الرحيل

مراجيح

من زمن التتويج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (3310) السنة الثانية عشرة
الخميس (12) آذار 2015
WWW. almadasupplements.com

14
الرصافي.. عن الطرب والمطربين

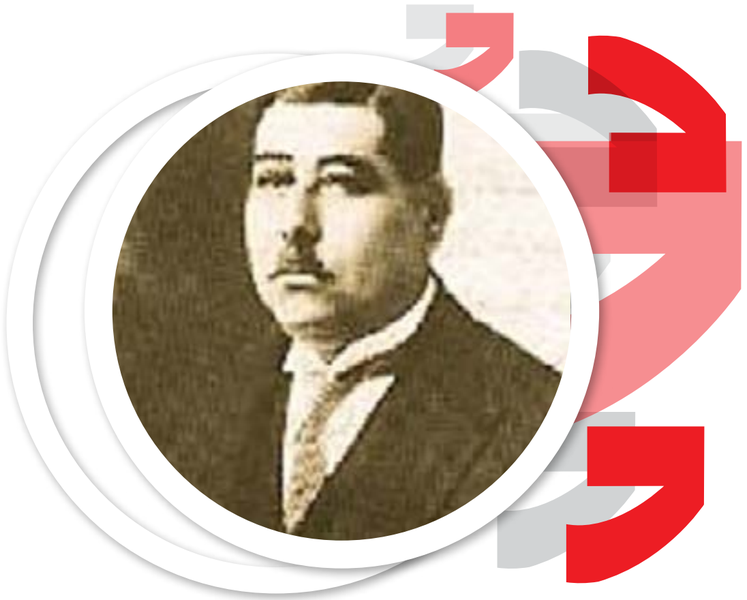

في ذكرى الرصافي لنكن غير منافقين

محمد مهدي الجواهري

عزيزي صاحب الحارس

سلام الله عليك: هذه كلمتي في ذكرى اعزها كثيراً ويجري قلمي سريعا وعلى معجبيه فيها حتى انه يريد لولا ان احد منه ان يؤلف كتاباً. وهي كما تراها منصبة على الرصافي الشاعر العظيم كما اريد له ان يكون لولا مجتمعه للتخلف ولولا شتى العوامل والبراءث المؤسفة في هذا المجتمع. وليس على الشاعر كما اراد هذا نفعه ان يكون.. وهي منصبة على الرصافي رحمه الله (المعذب) حتى اذ يبدو وهو اكثر خطأ من كل شاعر عراقي (مثله) تدليلا وتوظيفاً وتفقداً في فترات كثيرة وطويلة من حياته.

اقول هذا لانني ارى المجال هنا في عدد الخاص هذا وفيما ينبغي ان اشغله فيه من مساحة ضيقا وغير كاف للتحدث بافاضة عن حصة الفقيد الرصافي من ذلك التدليل سواء في العهد العثماني، او في ا العهد العراقي الجديد القائم على انقاضه. وسواء في المجالس النيابية او في وظائف الدولة. او في التقفدات الشخصية التي اعرف كما يعرف الكثيرون ان الرصافي نفعه رحمه الله كان مضطراً اليها. وتأثراً عليها وعلى اسلوبها. وعلى ما تطلبته وتتطلبه عادة من نفسه ومن ضميره من اثمان.. ومن تفكيره.

ان تحليلا بسيطا ينقذ منه من ظواهر الامور الى دخائلها يكشف المؤرخ للتعمق.. اكثر مما هو مكشوف حتى الان عن ان كل تلك المظاهر الناعمة التي مرت على حياة الرصافي والتي اشغلت خيراً غير قليل منها. والتي اختلفت عليها عوامل ودوافع عديدة انما تهيات له اذ كان العهد العثماني ورجاله وخلافته وخليفته هو موضع نقمة الشاعر ومصب غضبه الامر الذي كان لا يتنافى – وفي كثير من الاحيان فانه كان يتفق – مع احتفاظ الشاعر بعلاقاته الطيبة مع المتنفذين من رجال العراق خاصة ورجال العرب عامة انذاك من احتضان هذا او ذاك اياه.

وان الفترات غير القصيرة التي استراح فيها الرجل تقريبا خلال العهد العراقي القائم او التي بدا فيها وكانه يستريح خلالها على اصح تعبير كانت بادئ الامر بحكم الاستمرار لتلك العلاقات السابقة مع هؤلاء الرجال العراقيين الذين تداولوا الحكم في العراق ومنهم من لا ينفك يتداوله حتى الان.

حتى اذا ابتدأ الرجل الشاعر الناقم يصطدم بحكم شاعريته.. ووطنيته وثورته في فساد الامور. يصطدم بهذا "الحاكم" او ذاك.. وحتى اذا تجمعت له عندهم المآخذ وحتى اذا تنوسيت اعتبارات – شبه قبلية – مألوفة مرعية طغى عليها الترف واضاعها تكاثر للصالح والشهوات وتهافت الانتهاب والاعقاب انسل كل هؤلاء وهؤلاء من الشاعر تركوه في الحقبة الاخيرة من عمره بصورة خاصة، لوحده يعاني ما لا يذيق ببلد. ولا برجال، ولا اشباه رجال، فضلا عن انه لا يليق بشعب.. ولا بامة.

وبهذا المقياس ارى المجال واضحا ضيقاً الان لتبيين مدى اثر مثل هذه العوامل المضطربة الاضطرارية في حياة الفقيد الرصافي على شعره سواء في الناحية "الفنية" او "الموضوعية" او الشعبية. فانا اذ اجل الرصافي واعتز بذكراه بهذا الحد الكبير فلانني انظر اليه كشاعر اجتاز مرحلة وطنية معينة. وكشاعر خلق لاكثر مما تيسر له.. والسلام مرة اخرى.

محمد مهدي الجواهري

لنكن غير منافقين..!

والان فبلادع لغيري ان يتأثر بهذه الذكريات في العراق السنوية للزعماء والقادة والمصلحين والشعراء الخالقين المبدعين الامر الذي يوحي لمن لا يعرفنا ولا يعرف الحال التي نحن عليها اننا وطن يجد في كل ورقة من اوراق التقاويم السنوية ذوات الثلثمائة والستين ورقة رجلا من الرجال الافذاذ في السياسة وفي الحكم وفي الاصلاح وفي التوجيه وفي الزعامة وفي الفكر وفي الشعر.

ولادع لغيري ان يتعجب متسائلاً: لماذا اذن تتخبط الامة العربية كلها ذات السبعين مليون نسمة من "البشر في دياجير الجهل والاقطاع والبؤس والاستعمار مادام بلد واحد من بلدانها لا يتجاوز اهلوه الخمسة ملايين يعج بكل هذه الذكريات.

لادع ذلك كله لغيري: مادمت انا شخصيا لا اجد ذكرى واحدة منها غير ذكرى الرصافي عالقة بقلبي ونابضة في عروقي وحجتي في ذلك ان هذا الرجل ظل سنين عديدة في حياته. وسيظل اجيالا في حياته.. الثانية الاخرى وهو ينطق عن المي ومطمعي وينفس عن كربي، ويبغض عدوي ويحب صديقي.

لندع ذلك جانبا ولنحاول صادقين مخلصين غير منافقين ان نجيب على هذه الاسئلة ونحن نطبل الان وبعد فوات الوقت باسم معروف الرصافي ونزمر كم من هذه الصحف التي تصدر اليوم او التي كانت تصدر قبل اليوم اذ كان الرصافي ولاسيما في ايامه الاخيرة حيا شبه ميت في غرفته الجرداء – كم من هذه الصحف التي روجت اعدادها وتروجها اليوم باسم الرصافي وذكراه كانت قد نذرت نفسها لاضافه وعلى الجور وعلى الفساد وعلى الرشوة وعلى النظام الفاسد برمته افليس من السخف ان يكتفي بالانتصار له والدفاع عنه – ان صح شيء من ذلك – باستعطاف من يمثل ذلك الظلم والجور والفساد وذلك النظام وان يتهرب المتهربون.. ان يتهرب تحت هذا الستار شعب برمته. وقادة كما يدعون بهذا الشعب.

لهذا اطقون باسم هذا الشعب واخرون قادة متنعمون وساسة متخمون وقادة متراصون. ان يتهرب كل هؤلاء تحت ستار لعنة "الحاكمين" من تبعة تفقد الرجل في محنته والتعطف عليه في غزلته. والسد من خلته وعوزه.

قولوا لي ايها المنافقون: كم من هؤلاء الشباب والكهول "الافندية" ذوي الرواتب وذوي الدخل الثابت ممن غظ كل واحد منهم شيئاً من شعر الرصافي. او اعجب به او تعصب له او تأثر به من قطوع ان يقتطع درهما من كل دينار يمثله ليمد به شاعر العراق السياسي الناقم الدافع المطرود ليقول له: هذا قوتك وهذا مصرف جيبك الخاص اللائق بك ايها الشاعر المبدع واصلة اليك منا على يد الشعب الذي له نذرت نفسك ولسانك.. غامض حتى المهات قدما فيما انت ماض عليه؟ وكم؟ وكم؟ واسئلة؟

اجيبوني عليها صادقين غير منافقين ولا مثرثرين.. قبل ان ندعي احياء ذكرى الرصافي بل وقبل ان ندعى اننا نريد اثارة العبرة. والاعتبار لما يجب ان يكون عليه واحب "الناس" تجاه غير الرصافي اذ ضيع الناس واجبهم تجاه الرصافي.! اي عبرة واي اعتبار تريدون ايها المنافقون: اذكروا انكم تحيون ذكرى الرصافي – وهو تراب – وعلى الورق عشر سنين كاملة ومع هذا فانكم تتجنبون ان تذكروا حتى عن طريق الاشارة العابرة كلمة واحدة تقرب للناس فكرة "الاعتبار" "والالفاظ.!".

ايها المنافقون: انكم تمثلون مهزلتكم باحياء ذكرى الرصافي في الوقت الذي تعيدون مأساتكم مع غيره افضع مما كانت ادوارا؛ واشخاصاً وتمثيلا.!

ايها المنافقون.

ايها المنافقون، الرصافي رجل كشف لكم عن كل دخائل نفسه وافهم حتى من لا يفهم ولا يحس انه رجل مستعد ان يغني لكم بكل ما تحسون، وان يتنفس بكل مالا تتنفسون وان يقول عنكم وعلى لسانكم اجر اقول عن كلمة منه انتم عاجزون.

والوظيفة تقتل هذا الرجل وحتى النيابة – وهي وظيفة كذلك – تتطلب منه ثمنا غاليا من ضميره ولسانه وكرامته والمخصصات التي قد يتصدق بها عليه هذا الحاكم او ذلك تتطلب منه اكثر من ذلك وافدح، وهو لابد ان ياكل ولا بد ان يشرب ولابد ان يلبس ولابد ان ينام، وكل ما يأنبه عن طريق الحاكمين معناه القضاء عليه لسانا ناطقا باسم المحكومين، انتم المنافقون، وقائدا موجها ودافعا مؤثراً الى الامام ولا هو يهون عليه ذلك، ولا انتم لوهان عليه ذلك بتاركيه دون شتم ولا تجريح ولا تقبيح ومع هذا كله فان خمسة من "قادتكم" "الشعبيين والمترقبين ايضا مع شعبيتهم. وعندكم يحمد الظروف خمسون منهم كما تعلمون في كل جيل وزمان،! خمسة منهم يقدرون ان يقصد كل واحد في كل عام بلغاً ليس بالقليل عن اجرة خدمه وتنظيف سيارته وبستاني حديقته وتقاعد ابائه واجداده ورواتب ابنائه وابناء اخوانه!

وان يقولوا له وبعد هذا وذاك شارطين، ايها الرصافي العظيم يا شاعر الشعب والجماهير، لست معذوراً ان طلبت بعد هذا "الكفاف" عرشاً في السماء او ملك فرعون في الارض.

ايها المنافقون: ليس كل شيء هو "الحاكمين" كبرت كلمة تخرج من افواهكم، فهل انتم تفرضون اذ تخرجونها ان ليس هناك محكومون ام انهم هنالك ولكنهم ميتون.

ايها المنافقون: لا انا غبي، ولا انتم اغبياء؛! ان ورق "صحفكم" ما اندثر منها وما سيندثر المشحون بشتم الرصافي باسم "النقد" وباسم الشعر وباسم الادب شتما مقذعاً فاحشا وسخا بلغ حد اتهامه بانه "لقيط" وابن زنا ليفوق – اذ هو حي – اضعافا مضاعفة الورق الذي "تطهر" وتوضاء باعطائه بعض ما يستحق من تقدير ومن توقير فحاولوا الان والرصافي "تراب طاهر محض" ان تمحوا ان كان هذا محوا – من ذلك العار بان تكثروا في يوم معين من كل عام من اعمدة "فارغة" مشحونة بما لا يسمن ولا يغني من جوع.!

ايها المنافقون: اضحكوا على ذقن "الرجل الحي" وانتم ترقصون على قبر الرجل الميت. الرجل الذي صرخ بمقولته المأثورة:

يا أخي لو كنت طبالا، او ملعباً للقرود بين العبيد الزنوج طيلة خمسين عاما لوجدت فيهم من برعاتي ويتكفل باموري حتى الممات!!.

الرجل الذي يقول:

نزلت "الخان" في بلدي.. كاني اخو سفر تقاذفه الدروب.. ايها المنافقون: قولوا بعد هذا كله طمساً للعار اننا نقصد العبرة والاعتبار.. ايها المنافقون..

جريدة الحارس لسنة ١٩٥٤/
عدد خاص عن الرصافي

كتاب"معروف الرصافي" وذكريات الايام الخوالي

لا أملك سوى فراشي الذي انام فيه وثيابي التي البسها وكل ما عدا ذلك ليس لي بل هو مال اهله الذي يساكنوني

(من وصاية معروف الرصافي).

بلند الحيدري

اعادني كتاب صديق العمر، الاستاذ نجدة فتحي صفوة عن الشاعر العراقي"معروف الرصافي، اعادني الى فترة من اجمل فترات صباي المأى بطموح فتى دون الخامسة عشرة من عمره، وقد اخذه هوس شديد بمطالعة كتب الادب وحفظ الشعر، متلمساً نفسه في كل ما يثير العجب والاعجاب من شعر شعرائنا القدامى والمحدثين، فلا افتح ديوانا من دواوينهم، الا وقد اعددت سلفا دفترا صغيراً ادون فيه ما اقع اليه من قصيدة تعجبني او بيت شعر استشعر به ما يعمق وعيي بالحياة وينسجم مع نظرتي القائمة اليها، وكان سيد المغربين الي انذاك"ابو العلاء المعري ٩٧٢ – ١٠٥٧م"الذي كنت ارى في محابسه الثلاثة ذروة الالم الذي ما بعده الم يمائله، وفي حكمه غاية القول في ايجار قائمة الدنيا ورداءة اهليها، ونت احكامها، وكنت لا اكف عن ترديد رائعته الدالية، كلما عن لي ان اوحي لزملائي واهل بيتي عمق فهمي لمأساة الانسانية وعمق ما يعنيه بقوله:

خفف الوطء ما اظن اديم
الارض الا من هذه الاجساد

او قوله:

وحامل ثقل الثرى جديدة
وكان يشكو الثقل من عقده

وقوله:

هذا جناه ابي علي
وما جنيت على احد

وبقدر ما كنت اكن من اعجاب كبير بعبقريته، وبشاعريته الفذة في"سقط الرند"وفلسفته في"اللزوميات"وابداعه في"رسالة الغفران"كنت لا ادرك من"ابي الطيب المتنبي ٩١٥-٩٦٥م"الا عنجهيته وكبرياءه المفرطة في التعالي، ومدحه الدائم لنفسه، فاحس بكره شديد له، ولم تشفع له عندي حتى معرفتي بان أبا العلاء المعري كان من كبار المعجبين به وانه كان من بعض شراح ديوانه.. كان لي من تشاؤم تهالكت بعدي حمى الرومانسي وما يسري باذني انضح وعياً، وانني اكبر من سني، وان المعري كان مندمجاً بشمولية انسانية عندما يقول:

وما انا الا الهالك وابن هالك
وذو نسب في الهالكين عريق

وفاتني، وانا في مثل تلك السن، ان اتبين عبقرية المتنبي في محاكمته لعصره وتقويم ما التاث على الناس من امر دنياهم، واندفاعهم في سبل الذلة والاستكانة والافك القرع، فعزوت تعاليه بسبب من شعوره بضعة اصله وفقر منبته، فسعى الى ان يوحي بغير ما هو حقيق به، وفاتنني ايضا القدرة على ان ادرك في عزلة المعري وزهده غيرما تقول به قصائده، وفي اندماج المتنبي في كل صغيرة وكبيرة من واقع مجتمعه وعصره غير ما تقول به غربته عنهما وتعاليه عليهما، ولم يكن سبيل ذلك ميسراً لصبي في عمري.

وعلى مثل ما كنت انتصر للمعري مدافعا عن حياضه بما احفظ من شعره وما اجمع من ماثره في حسن شمائله ورعايته وجه الحق في الذي يقوله، وفي نفرته من التكسب بالمدح الرخيص. كنت انتصر لجميل صدقي الزهاوي"١٨٦٢ – ١٩٣٦"واتجاهه الفلسفي والاجتماعي ودفاعه عن حقوق المراة ونزوعه للتجديد ولو قبض لي ان اتعلم الرسم، لما كان لي ان ارسم صورة للمعري الام من خلال صورة للزهاوي، بوجهه الشاحب ولحيته الكثة، باستثناء نظارته وعينيه الذابلتين واللتين لا تذهبان بي بعيداً عن تمثلي لعينيّ المعري العمياوي، وعلى مثل ما كنت انفر من شخصية المتنبي ولا افهم ابعادها.

ومن شعره، ولا استطيع الغوص عميقاً فيه، كنت انفر من الرصافي وشعره ولا احفظ منه الا ما تعكر صفوه وساء وصفه لانال به منه عندما يتسنى لي ان اتحدث عنه امام زملائي الطلاب واساتذتي في المدرسة، فهو في نظري شاعر محافظ لا يخرج عن عباءة ما ترسمه الاقدمون من شعرائنا الصغار وحكمهم. ولا تخرج صوره عن الصورة العينية لتتشكل في بعد رمزي يغري ويحفز على المشاركة في نيلها في الذي هو اكثر من ظاهرها. انها بلا شك احكام مبشرة، ومجموعة انطباعات، كان بعض اثرها متأنياً من اهل بيتي واصدقائهم ممن كانو يجلون الزهاوي لنسبه وعفته وانسياقه معهم في تاييد الحكم، ولا يرون مثل ذلك في الرصافي اللاهي والمشاغب وابن العائلة الفقيرة والمناوئ لفيصل الاول الذي كان فيهم من يحسب على بطانته.

وانقلبت كل احكامي رأسا على عقب غب لقائي بالرصافي لاول مرة في قضاء الفلوجة حيث كان يشغل فيه منصب قائمقام القضاء زوج عمتي السيد شاكر محمود، والذي اتيته زائراً لقضاء شهر من فصل العطلة المدرسية في مدينة الفلوجة، وكان بيته مفتوحا كل مساء جمعة لاستقبال زواره من الموظفين ورجال العشائر وبعض وجوه البلد المعروفين حيث كانوا يتحلقون بشكل دائري في فسحة الحديقة المطلة على نهر الفرات، وعلى كراس من الخيزران باستثناء عدد قليل من الكراسي الوثيرة التي خص واحد منها بالقائمقام، وتركت الاخرى لمن يريد ان يوفره من زواره، او من يريد ان يحدثه حديثا خاصاً، او من يريد ان يسر اليه بنبأ سري، وما اكثر تلك الانباء التي كانت تسري همسا من مكان الى مكان في تلك الايام.

ويوم ان وصلت الفلوجة كان مجلس الجمعة منعقدا في دار زوج عمتي الذي هرع الي مرحبا بي واخذني من يدي، ومن قبل ان اسلم على عمتي واولادها ليقدمني الى ضيوفه، معرفا بهم واحدا واحدا، ثم ادنى كرسي الوثير ايضا، من كرسيه، وفجأة يقف الجمع مرحبا بشيخ يرتدي اللباس البلدي والعباءة ويسير بتؤدة وقار وهو يرفع يده ببطء مسلما على الحاضرين، ثم يتخذ له كرسيا الى جانب كرسي القائمقام، كما لو انه مكانه الاثير المعد له سلفا، فلا حاجة لان يسأله عمن يقدمه اليه، وظننته في البدء واحدا من علية القوم في المدينة، اذ لم يسبق لي ان رأيت صورة للرصافي بكوفية وعقال وعباءة. جلس وجلسنا، ودارت فناجين القهوة على الجالسين مصحوبة بالسجائر التي تكفل بأمرها اثنان من خدم البيت، وتوجه عدد ممن ضمهم المجلس بالسؤال عن صحته، وامور دنياه، وهل من قصائد جديدة؟ ويرد بصوت اجش وهو يبتسم،"هذي الحكومة خلت عدنا شعر"ويلتفت اليه شاكر محمود قائلا:"ها بدينا بعدما كعدنا"ثم يضحك الجميع.

اذن هذا هو الرصافي الذي شغل العراق بقصائده وباخباره وجرأته.. هذا هو الرجل الذي ظننت بانني اكرهه، وها ان مملوء الان بمشاعر الاعتزاز لانني احضر مجلسه، وما اكثر ما سأرويه لزملائي واساتذتي عنه، ساقول لهم بان ليس بين كرسيه وكرسي غير كرسي القائمقام الذي ما ان يغادره للحظة حتى اتحين الفرصة لتاملة، من مسيحته الطويلة المتدلية من يده اليسر، والى تجاعيد وجهه، حتى اذا ما أنتبه الي والى عيني المشدوهتين ابتسم لي بطيبة اخاذة، ثم انصرف لسماع حديث بداه واحد من الحاضرين. يقال ان السيد ضياء شكارة يعد كتابا عن الزهاوي وعن علاقته به وعن نوادره مع الزهاوي، ومن تلك كما سمعت انه زاره ذات صباح من ايام الصيف فرآه جالسا في حديقة الدار والشمس مسلطة على رأسه فاستغرب ذلك منه، ونصحه بان يترك مجلسه، فما كان من الزهاوي الا ان رد عليه قائلا: ولدي ضياء لم يبق في هذه الشجرة غير ورقتين استظل بظلهما، فرد عليه ضياء شكارة وحتى اصبحت عصفوراً لتكتفي بظل ورقتين، استمر الحديث كذلك بدور من نادرة الى نادرة عن الزهاوي وعن المقالب التي كان يعدها له بعض الشبان من الادباء. وكان الرصافي يبتسم وهو يردد،"الله يرحمه، لقد شبع موتا، يا ناس لماذا لا تتركونه ينام بسلام". فيتزلف له واحد من الجلوس بقوله:"وهل تركك بسلام لنتركه بسلام"، فيبدو على وجه الرصافي شيء من الامتعاض وهو يقول:"كان الرجل طيبا وكنت احبه وما حدث بيننا يحدث في كل زمان ومكان"ثم نهض مودعا جلساءه، فمن عادته ان لا يمكث طويلا في مثل هذه الزيارات، وينهض الجميع، وبمشية متثاقلة يتوجه نحو الباب وبصحبته زوج عمتي، وسرت وراءهما، وعند الباب تصافح الاثنان، ثم مد يده الي مصافحا وهو يسألني عن اسمي فاجيبه وانا ارتجف اسمي بلند، فيضيف زوج عمتي، انه ابن اكرم الحيدري.

× ولكنه اسم غريب.. غريب جداً.. لعله اسم تركي.

– عمته.. اي زوجتي هي التي سمته به.

وكانت يدي لا تزال في يده، عندما قلت له وانا التعثم، بانني اريد اريه اشعاري فانا شاعر.

– شاعر.. ما شاء الله.. تعال لي غدا بعد الحادية عشرة صباحا واحمل معك شعرك.

ويضحك ويضحك معه مجاملة زوج عمتي، الذي بدا لي وكانه لم يكن راضيا من الامر، ومع ذلك قال لي بان"محمد"اي البستاني سيذهب معك وسيرجع معك، مع العلم ان بيته على مدى امتار قليلة من دار القائمقام ولم ادرك سبب اصراره على ان يصحبني محمد.

مازلت اذكر كل ذلك بوضوح كما لو انه حدث بالامس فقط، فقد سهرت طوال الليل وانا اختار من القصائد ما هو جدير بان احمله اليه، وكانت حقيبتي المدرسية ملأى بالعشرات مما كنت اظنه شعراً بكرت في الاستيقاظ واعدت النظر في القصائد المختارة، وفي الموعد المحدد بعناية فائقة لاذهب مع"محمد"الى دار الرصافي كان في مثل لباسه الذي رأيته فيه يوم امس الغرفة بسيطة جدا باثاثها. عدة كراسي وطاولة خشبية عادية ومشجب قديم علقت عليه ملابسه دون انتظام، وكان معه احد معارفه الذي سرعان ما استأذنه بالانصراف ولم يبق غير"عبد"القائم على خدمته وغير محمد الذي انتبذ زاوية من الغرفة وجلس فيها القرفصاء.

"انت شاعر.. ها.. ارني ما معك"

ومددت ما احمل من الاوراق اليه راح يقلبها بعجل، ثم عاد الى تقليبها مرة ثانية وانا انتظر متلهفاً ان يقول شيئاً ثم اخذ يقرأ بعض الابيات بصوت خافت، ويقف ليعلق تعليقاً موجزاً:"هذا بيت جيد، موزون واللغة سليمة.. الافكار جيدة"ثم يرفع عينيه الي وهو يقول:"عليك ان تحفظ من الشعر الكثير وعليك باللغة"الاخطاء كثيرة في الوزن وفي اللغة، ولكن لا بأس كلنا بدانا هكذا.. من تحب من مسليا، اقف عند طرائفه، واقفز منها الى عيون ما فيه من شعر ومن خير، ثم اطويه لابدأ بكتابة القصيدة التي ينتظرها الرصافي مني.

وفوجئت بعد مكوثي اسبوعين في الفلوجة، بطلب من والدي بان ارجع لبغداد، ولم ينفح رجاء عمتي وهكذا عدت لبغداد بعد ان ودعت الرصافي وشددت على يده معبرا عن جزيل شكري لنصائحه وما قوم من شعري، ووعدته بانني ساضبط موازين الشعر وساقوي لغتي.

وفي بغداد فوجئت بما رأيت من علائم الغضب البادية على وجه والدي"الرصافي.. كيف تدخل بيته؟ لكن الذنب ليس ذنبك ذنب شاكر محمود وعمتك.. الا تعرف من هو الرصافي؟.. رجل بلا اخلاق انه.. انه."

وكان من الصعب علي ان اجابه غضبه حتى ولو بكلمة اعتذار. ثم هدأ قليلاً، وطلب مني ان لا اروي لاي من الطلاب والاساتذة شيئاً عن زياراتي لبيت الرصافي وهكذا تحول ما كنت اريد ان افتخر به امام زملائي واساتذتي الى سر لا يمكن ان ابوح به لاحد.

ومرت ثلاث سنوات عجاف قبل ان يقيض لي ان التقي بالرصافي. مرة اخرى بعد ان اهتديت الى مقهاه القريب من جسر حي الاعظمية، حيث تعود ان يجلس فيه، وقد احاط به دائما رهط من اصدقائه، او رهط من الشبان هش الرجل للقائي وادنائي من مجلسه وبادرني بالسؤال عن شاكر محمود وآله، فاخبرته بما وقعت عليه من كوارث اليمة بعد ان فقد ولديه، فاسف الرجل لذلك وتمتم بالدعاء بالخير لمن بقي حيا من اهله بيته، ثم سألني عما اكتب فقلت له باننى مزقت كل الذي كتبته في السابق ولدي الان ديوان شعر كامل سميته"القصائد السود"، وقد راجعه استاذي في اللغة العربية بمدرسة التفيض كمال الجبوري.. ورآه صالحا للنشر وانا ارید رأيك والا فاني سامزقه.

ومددت به اليه، اخذ يقرأ بعض ابياته بصوت مرتفع ويثني على ما يقرأ"جيد.. شعر جيد"وشجعني ذلك على ان امد يدي الى جيبي لاخرج بوريقة صغيرة، حملت عدة ابيات من قصيدة جديدة عنونتها"الى ابي العلاء المعري"ولم اكن قد اتممت القصيدة، واخذت اقرأ.. وما زلت اذكر منها هذه الابيات.

شيخ المعرة قم واصلح لنا فئة
الوهم اودي بها والذل والخور
موتى من الاثم قد شاهت ضمائرها
تابى وتأنف من اشلائها الحفر
بيض المظاهر لكن علي اضلعهم
رجس تسمم منه القلب والنظر
واضيعة النور في قوم بصيرتهم
خيري وابصارهم لم يهدها البصر

وازداد اطراؤه لي، وهو يدير عينيه بالشبان الجالسين حوله:"هذا شعر والله شعر.. اكتبوا مثله، ثم اعاد الي الديوان وهو يقول لاحاجة بي الى قراءته، اذهب ودبر امر نشره"القصائد السود"ومازالت النسخة الخطية في مكتبة الاخ الصديق الاستاذ خيري العمري كما اخبرني بذلك عام ١٩٧٧.

واستمر لقائي بالرصافي في المقهى المعهودة، وهو بين مريديه واصدقائه. وتختلف بنا الاحاديث الى مواضيع متعددة في السياسة والادب والذكريات، ويبتسم حينا، ويدلهم وجهه في حين يخر، وقل ان شكا مما كان يعانيه من شظف العيش او من مرضه او من كبر معاناته مع امور دنياه التي كنا نعرفها جيدا، وان صرف احدهم الحديث اليها، صرفها عنها بكبرياء الكبير الذي يرى في مثل هذا الحديث ما يجرح كرامته.

كان معروف الرصافي، رجلا ظريفا على ما يبدو من صراحة في وجهه وقوة في صوته، وكان سريع البداهة، حلو النكتة واذكر مرة ان صبيا دلف الى مجلسه وهو يتأبط رزمة من الاوراق على مثل الاوراق التي تابطتها انا في اول لقائي به، فما ان وقعت عينا الرصافي عليه حتى قال:"اعوذ بالله هذا هو تأبط شرا"وكان الامر كذلك بالفعل. اذ ما كاد له ان ياخذ مقعده حتى استل كما من تلك الاوراق، مستذئنا الرصافي في ان يسمح له ان يسمعه شيئاً من شعره، ومن قبل ان يأذن، راح صوت صاحبنا يلعلع في ارجاء المقهى بكلام لا طعم للشعر ولا للنثر فيه، فالتفت اليه متسائلا وبكثير من الجد:"انت وحدك كتبت هذه القصائد العصماء؟"فرد الصبي بفرح كبير، والله والله يا استاذ انا وحدي كتبتها كلها من بطني انا"، فربت الرصافي على كتف من كان يحاذي مجلسه وهو يقول:"اكيد انها من بطنه... الم تشم رائحتها؟"فانفجرنا بالضحك جميعاً، وانسحب الصبي حانقا ولاعنا.

ولم تمض على هذه اللقاءات الا فترة قصيرة من الزمن، حتى كانت صحة الرصافي قد اعتلت كثيراً، فانقطع عن المقهى وانقطعت عنها ثم كان نبأ وفاته وموعد تشييعه في ١٩٤٥/٤/١٦ فهرعت عجلا لا لتمس نفسي في لقاء اخير به، وهكذا كنت واحدا من الحشد الذي سار وراء جنازته وواحداً ممن هالوا التراب على تابوته وواحدا ممن قرأوا الفاتحة على ورحه. وبكيت طويلا في ذلك اليوم وحاولت غير مرة ان اكتب فيه رثائي له، ولكن ماذا يمكن ان اقول بعد ان استمعت الى الجواهري الكبير يقول في حفلة تأبينية.

ذئب ترصدني وفوق نيوبه
دم اخوتي واحبتي وصحابي

رحم الله الرصافي، وامد بعمر الجواهري والصديق الاستاذ نجدة صفوة، فقد اتاح لدارسي الرصافي ان يدركوه في بعد جديد ومهم، كما كان لنا جميعا من دراسته الفذة والشاملة ما يعدنا بدقائق كثيرة من حياة الرصافي التي طالما شوهت ودس عليها الكثير مما هو بريء كل البراءة منه.

م/ *المجلة* ١٩٨٦

كان معروف الرصافي، رجلا ظريفا على ما يبدو من صراحة في وجهه وقوة في صوته، وكان سريع البداهة، حلو النكتة واذكر مرة ان صبيا دلف الى مجلسه وهو يتأبط رزمة من الاوراق على مثل الاوراق التي تابطتها انا في اول لقائي به، فما ان وقعت عينا الرصافي عليه حتى قال:"اعوذ بالله هذا هو تأبط شرا"وكان الامر كذلك بالفعل

الرصافي والزهاوي في حفلة المصالحة بينهما في دار محمود صبحي الدفتري يوم ١٩٢٨/١٢/٨

شـيء عن الرصافي في القدس سنة 1920

رفعة عبد الرزاق محمد

كتب الكثير عن شاعر العرب الكبير معروف الرصافي، وتناول الكتاب جوانب مختلفة من سيرته وشعره، وعلى الرغم من كثرتها وتنوعها فقد بقيت حلقات مهمة من حياة شاعرنا، بعيدة عن اقلام الكتاب وتحقيقاتهم لاسباب كثيرة، ولعل لاستاذنا الفاضل عبدالحميد الرشودي في كتابه الاخير عن الرصافي، العذر الواضح في عدم ولوجه تفاصيل سيرة الشاعر وآرائه لانه اراد ان يقدم صورة عامة للمترجم له مالا يسع الاديب جهله، كما ان بعض كتابنا الافاضل، ابتعد – بقصد– عن الحديث حول موضوعات معينة في حياة الرصافي درءا للتقولات (كذا)، مع ان الرصافي عاش ومات فوق الشبهات وبعيدا عن كل مايشين وطنيته وحبه لوطنه وامته، فضلا عن ان حياته صارت ملكا للتاريخ ومجردة من الحساسيات الشخصية.

ومن هذه الموضوعات حياته في فلسطين وقصيدته الذائعة التي القاها في القدس سنة ١٩٢٠، وما اثير حولها من شبهات، ومقالنا محاولة اولية، لبيان (حقائق) و(طرائف) من حياة الرصافي في القدس، وكشف بعض الصفحات المطوية منها.

انتهت الحرب الكونية الاولى، وانهار الحكم العثماني في بلاد الشام والعراق، وتأسست دولة عربية في سورية ترأسها احد انجال الشريف حسين هو الامير فيصل وفي هذا الوقت كان معروف الرصافي في اسطنبول، فسر سرورا كبيرا لقيام الدولة العربية وشعر بأن منصبا كبيرا في هذه الدولة العربية ينتظره، لانه كان شاعر العرب وقصائده في العرب وامجادهم سارت بين الناس مسار الامثال، لكنه لم يفز بما كان يأمله، ولم يظفر بشيء يسير. لقد لقي من الحكومة العربية في الشام اعراضا بسبب موقفه المعارض لثورة الشريف حسين سنة ١٩١٦ ونظمه قصيدته المميتة (الديوان/ ٣/ ٥٩). واكاد اعتقد بأن حاشية الملك هي التي لعبت دورا كبيرا في عدم الاهتمام بالشاعر العربي الكبير، وربما اسروا للملك مايذكره بأن هذا الشاعر كان قد تعرض لابيه في مناسبات سابقة، واصيب الرصافي بخيبة امل كبيرة، وأحس بالضيق واليأس، ولما كان شاعرنا من الذين فطروا على عدم الاستجداء والتراجع عن مواقفه السياسية، فقد قرر العودة الى وطنه العراق.

وفي غمرة استعداده الى العراق، تصله دعوة كريمة لم تكن في الحسبان، فتدارك امره اصدقاؤه في فلسطين، اسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني وعادل جبر وكانوا يومئذ يتولون امر التعليم في فلسطين فترامت الى اسماعهم اخبار صديقهم الرصافي فدعوه للتدريس في دار المعلمين بالقدس، فوافق على دعوتهم ووصل القدس يوم (٣ آذار ١٩٢٠) واصاب في وظيفته الجديدة بعض الراحة والاستقرار، حيث خصص له راتب قدره ثلاثون جنيها، وسكن لائق في احد اجنحة دار المعلمين، وقد ذكر هذه الحقيقة رفائيل بطي (ت ١٩٥٦) نقلا عن اسعاف النشاشيبي (مجلة القلم الجديد العمانية، ايار ١٩٥٣).

عاش الرصافي في القدس في دعة ورخاء، محاطا بعناية اهلها الكرام وهو القائل:

اصبحت بالقدس في امن وفي دعة
وكدت من قبلها في الشام

اعتقد (الاعتقاد: ان يغلق الرجل بابه عليه فلا يسأل احدا حتى يموت جوعا وكانوا يفعلون ذلك ايام الجدب). ومن مظاهر هذا الرخاء، قيام طلبة مدرسة الشبان في القدس بتكريم الرصافي في حفل ادبي رقيق (الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني، كامل سوافيري ص ٢٧). وقد اقتنت نظارة المعارف في فلسطين الف نسخة من ديوان الرصافي الموسوم (الاناشيد المدرسية) الذي نظمه في القدس بتكريم الرصافي للدكتور خليل طوطح، وكان يستشير بعض الموسيقيين قبل ان يبدي له موضوع النشيد لينسجم اللفظ والنغم، كما افادنا استاذنا عبدالحميد الرشودي (ذكرى الرصافي، بغداد ١٩٥٠، ص ٨٤) وقد بقي الرصافي يذكر باجلال واعجاب كبيرين حفاوة الفلسطينيين:

قد كان في الشام لالايام مذ زمن
ذنب محته الليالي في فلسطين
اذ كان فيها النشاشيبي يسعفني
وكنت فيها خليلا للسكاكيني
وكان فيها ابن جبر لايقصر في
جبر انكسار غريب الدار محزون

كتب الرصافي رسالة الى الشيخ عبد القادر المغربي بعد وصوله القدس بثلاثة ايام،ذكر فيها انه في محطة القطار طولب من ادارة البوليس فيها ابراز جواز السفر فابرز ورقة لم يعترف بها ضابط البوليس، في الوقت الذي لم يبق لحركة القطار الا بضع دقائق مما يقتضي تاخير السفر الى اليوم التالي، يقول: وبينما انا في تلك الحالة المحزنة اذ جاء رجل عراقيمن الضباط فذكرت امر البوليس فقال ان مدير الشرطة الان في قصر الشرق حيث يسعون لاطفاء حريق قال هذا الامالي) ورد على المقال ردا لامزيد وذهب مسرعا ثم عاد وبيده تذكرة من مدير الشرطة الى البوليس، فقطعنا (البليت) وهرولنا الى القطار فما كدت اركبه الا وقد تحرك فودعت صاحبي والقطار سائر ولو لم ادركه وتاخرت بعض ثوان لبقيت اليوم في الشام فلما رأيت القطار سائرا بي استولى علي السرور فجرى على لساني بدون ترو ولا افتكار:

ما خرجت من الشأم
خرجت من جب الشآمة

وفي يوم الاربعاء بعد المساء وصلت القدس فبت تلك الليلةفي الاوتيل وفي الصباح خرجت واهتديت بالسؤال الى محل عادل بك جبر فوجدته واسعاف النشاشيبي معا فسرا بي وابتهجا وفي الحال ذهبا بي الى دار المعلمين وامرا بلتهيئة غرفة لي فهيئت فانتقلت اليها من الاوتيل وانا اكتب لكم هذا الكتاب من غرفتي... وقد مر علي يومان في القدس ولم يفارقني فيهما كل من عادل واسعاف والسكاكيني فقد انتظم عقد فريد لاتنقصه الا واسطته وهي انتم والرأي انه لابد من هذه الواسطة.

واوحت فلسطين للرصافي بعدد من القصائد، هي: في سبيل الوطن، في ايلياء، دار الايتام، الحمد للمعلم، تحية سركيس، وخلال وجوده في فلسطين، نشرت الجرائد مقالا لشكري غانم المقيم في باريس صرح فيه بالتبرؤ من الامة العربية، فغضب الرصافي وظهرت غضبته في قصيدته (صبح

فلسطين، وقد القى هذا المستشرق محاضرة موضوعها (ماضي العرب في الاندلس)، حضرها عدد كبير من اهالي المدينة، تزعمهم راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس. ولكي لاينحاز مقالنا الا الى الحقيقة وحدها، نسوق ما رواه شاهد ثبت لهذه الحادثة التي رددها خصوم الرصافي في اكثر من مناسبة، وشاهدنا هو الاديب الفلسطيني الكبير عجاج نويهض، وقد نبهنا الاستاذ الفاضل عبد الحميد الرشودي الى امر نويهض ومقاله (الرصافي كما عرفته) المنشور في العدد الرابع من مجلة (الفكر العربي) في ١٥ حزيران ١٩٦٢، فلنطلع على بعض ما جاء فيه:

((.. وكان الرصافي والسكاكيني وعادل جبر يجلسون معا في صدر القاعة وانتهت المحاضرة وليس فيها مما ينتقد شيء يذكر، غير ان الخبيرية اخذت تدب عقاربها من فم هربرت صموئيل، لما نهض يشكر المحاضر والحضور والمحاضرة، ثم اخذ يتطرق الى ماكان في رأسه وينقر نقرات حساسة هي عنده بيت القصيد، ومما قاله صموئيل: والان مالنا وللذهاب الى الاندلس لنرى اثار العرب، فهنا في فلسطين نجد من اثارهم الناطقة بحضارتهم ما ينطبق على هذه الكلام للمحاضر. قتلك بلاد كانت للاسبان فقدوها ثم عادوا اليها. قال لي عادل جبر ما استطاع نقله بتمام حروفه تقريبا: لما نطق صموئيلبهذه العبارة، حار الرصافي وهو بين الاسكاكيني يتكهرب ويتململ، ثم راح يدمدم اشياء غير مفهومة وكاد يمتقع لون وجهه، ومغزى صموئيل اوضح من ان يوضح، اذ مراده ان البهود عائدون الى فلسطين عودة الاسبان الى اسبانيا.

وذهب كل الى بيته، واغتكف الرصافي في غرفته الخاصة في دار المعلمين، واستبد به القلق تلك الليلة، وفي الصباح استفاق على قصيدة رد فيها على مغزى ما قاله صموئيل في اليوم السابق ولكنه، وهو شاعر حر، وليس بسياسي يالف الروغان، رد على المجاملة بمثلها، وبعد ذلك قال كأنه جزء من النبؤة السياسية ومنها هذا البيت:

ولكننا نخشى الجلاء ونتقي
سياسة حكم يأخذ القوم بالقهر

وبعد سبع وعشرين سنة شاء الله امتحاننا للعرب ان تتحقق هذه الرؤيا... وسرعان ما اثيرت على الرصافي عاصفة هوجاء احتجاجا على ماقاله من ابيات مجاملة. والصحيح ا نابيات المجاملة هذه كانت زائدة على المقدار، ولم ينتبه الرصافي الى مافي ذلك من شطط لايقسر بانه ضرب من ضروب المجاملة، ولكن العاصفة التي اثيرت عليه لم تكن تخلو هي الاخرى من شطط، لانها كانت تريد النيل من راغب النشاشيبي من فوق راس الرصافي لاسباب حزبية ضيقة. كما ضوىق الرصافي وهو الرجل الحساس. نشر عادل جبر في جريدة (فلسطين) كلمة بين فيها ما للرصافي من حسن مقصد، و حصر المجاملة بمقتضاها لا اكثر ونوه بمواقف الرصافي في سبيل العرب من ايام الاستانة، فتلاشت العاصفة ولكن اثرها المر بقي في نفس الرصافي..))

ونستدرك على ماقاله الاستاذ الكبير عجاج نويهض مؤرخ الحركة الوطنية الفلسطينية ان جريدة (الف باء) المقدسية، نشرت قصيدة الرصافي غير كاملة، مما اثار بعض من عد ذلك غريبا في بابه،حتى ان احد الذين ردوا على الرصافي اظهر ندمه الى العلامة الشيخ عبد القادر المغربي وقال: ان الذنب ذنب مراسل الف باء الذي لم ينشر القصيدة كاملة من اول الامر فلم نعرف ما قاله الرصافي فيها (رسالة المغربي الى الرصافي في ٢٩ كانون الثاني ١٩٢١ نشرها الرشودي في رسائل الرصافي).

وبسبب هذه الضجة التي اثيرت ضد الرصافي، ذكر بعض الكتاب ان الرصافي فارق القدس مضطرا. والحقيقة ان الضجة لم تكن سوى (زوبعة في فنجان) كما يقولون، فسرعان ما انتهت وتلاشت اثارها.

وفارق الرصافي القدس لسبب اخر لايتعلق بالحادثة باي شكل من الاشكال، فقد ذكر الرصافي فيما بعد الى صديقه الاستاذ كامل الجادرجي، ما فحواه انه تلقى برقية من صديقه حكمة سليمان يدعوه فيها للعودة الى العراق لاسباب وطنية. وتبين ان جهة من السياسيين العراقيين المتلقين حول طالب النقيب وزير الداخلية في الوزارة العراقية المؤقتة، ارادت اصدار جريدة سياسية لتكون لسان حال الجبهة التي نادت بفكرة (العراق للعراقيين). ولما وصل الرصافي الى بغداد في التاسع من نيسان ١٩٢١، بعد انتهاء مؤتمر القاهرة الذي تقرر فيه توجيه عرش العراق الى الامير فيصل بن الحسين وجد ان طالب النقيب قد انتهى سياسيا بنفيه الى خارج العراق ونشتت مؤيديه وموت المشروع في مهده. وقبل بوظيفة (نائب رئيس لجنة التعريب) التي سرعان ما سئم منها لاعتقاده انها وظيفة وهمية ابت كرامته ان يستمر بها...

وبعد فهذه صفحة منسية من حياة الشاعر الكبير الرصافي، لم يشر اليها الكتاب الا عرضا، كتبتها وصولا الى غاية رئيسة، هي دفع الشبهة التي ردده البعض بلا ترو وتحقيق.

الـــرصـــافـــي صـحـفـيـاً

الزهاوي بين الرصافي ونوري ثابت

خيري العمري

كان الشاعر الكبير معروف عبد الغني الرصافي، من اوائل العراقيين الذين عملوا في الصحافة، ومع انه لم يفارق الحياة الا في السادس عشر من اذار ١٩٤ الا ان الذين كتبوا عنه لم يستمع اي واحد منهم، اعطاء صورة صادقة عن"الرصافي الصحفي" واحدهم هو صديقه، وراوية شعره الاستاذ مصطفى علي، الذي غادر الدنيا في اوائل الشهر الحالي، فقد اورد بعض المعلومات غير الدقيقة عن الاعمال الصحفية التي مارسها الرصافي، وذلك في ترجمته لحياة شاعرنا التي نشرها في مقدمة الجزء الاول من ديوانه الذي طبعته وزارة الاعلام عام ١٩٧٢، وتجد الغموض والارتباك كذلك فيما اورده عنه مؤلف كتاب"اعلام في صحافة العراق" المطبوع عام ١٩٧١: فقد اخلفا واتفقا وتجاهلا الكثير من نشاطات الرصافي الصحفية.

يقول السيد مصطفى علي في ترجمته لحياة الرصافي: "وبعد اعلان الدستور العثماني، دعاه صاحب جريدة (اقدام) ليتولى الكتابة في الجريدة، التي عزم على اصدارها باللغة العربية، ولما ذهب الى الاستانة، رأه قد انثنى عن عزمه فعاد الى بغداد، ثم دعي الى الاستانة ليدرس اللغة العربية في المدرسة الشاهانية، وليقوم بالكتابة في مجلة (الارشاد) فسافر اليها.."

ثم يقول: "وبعد بضعة اشهر عاد الى بغداد، فاصدر جريدة سياسية باسم"الامل" لم تمهلها الظروف السياسية ان تعيش اكثر من ثمانية وستين عدداً"..

اما ما ذكره مؤلف كتاب"اعلام في صحافة العراق"فقد قال عن الرصافي الصحفي ماي يأتي:

١- اول اشتغاله بالصحافة خارج العراق كان في جريدة باسم"سبيل الرشاد"في الاستانة للمدة بين عامي ١٩٠٩ – ١٩١٠.

٢- عين رئيسا للقسم العربي في جريدة"بغداد"لصاحبها مراد سليمان وهي اول جريدة عربية اهلية تصدر بعد انقلاب الدستور (كذا) وكانت اقوى الصحف العربية انذاك.

٣- التحق بمجلة"دار المعلمين"التي اصدرتها نظارة المعارف ببغداد رئيساً للتحرير، وهي ادبية شهرية صدرت في ١ تشرين الاول عام ١٩٢١.

٤- اصدر في ١ تشرين الاول عام١٩٢٣ جريدة يومية سياسية"ادبية"اجتماعية باسم"الامل"في بغداد لمدة سنة ونصف، ثم ترك الصحافة!

ويلاحظ في هذا الذي نشر عن حياة الرصافي الصحفية ان ايا من الكاتبين لم يشر الى التاريخ الذي وقع فيه الانقلاب الدستوري في الدولة العثمانية، فقد وقع ذلك الحدث الهام يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨، كما اختلفا في اسم الصحيفة التي عمل فيها الرصافي في الاستانة (اي استانبول) فقال الاول انها مجلة اسمها (الارشاد) وقال الثاني انها جريدة اسمها "سبيل الرشاد) وتجاهل الاول اسهام الرصافي في تحرير جريدة (بغداد) كما لم يشر الاخر الى ان صاحبها مراد سليمان هو شقيق السيد حكمت سليمان الذي صار فيما بعد رئيسا للوزراء بعد ان قام الفريق بكر صدقي بانقلابه العسكري عام ١٩٣٦ وقد صدر العدد الاول منها في السادس من آب ١٩٠٨ واول من ذكر ذلك هو الاستاذ عبد الرزاق الحسني في الكتاب الذي الفه عن تاريخ الصحافة العراقية، وهو اول كتاب من نوعه يصدر في العراق، وكان ذلك في النصف الثاني من الثلاثينات، كما يفهم من سياق كلام – مصطفى علي – عن الرصافي، انه يعتقد بان"الامل"صدرت عام ١٩٢١، والصحيح هو ما ذكره السيد الحسني، ومؤلف كتاب اعلام في الصحافة العراقية، فقد صدر العدد الاول منها في الاول من تشرين الاول ١٩٢٢

ويقول الحسني عنها انها،"كانت لسان حال سياسة عبد المحسن السعدون"!

ونعتقد ان الاعداد التي صدرت من جريدة"الامل"تستحق دراسة خاصة لما نشر فيها من مقالات وتعليقات، وتعقيبات، ذلك لان كاتبا وصحفياً معروفا وهو المرحوم امين احمد قد كتب عن الرصافي في ذكرى وفاته الرابعة، ونشر مقالته قال فيه: "اصدر الرصافي جريدة (الامل) في عهد الانتداب البريطاني، وكان اصدارها استجابة لتأثيرات خاصة، وظروف اضطرارية، وهي – اي الجريدة – وان كانت قد حملت اسم الرصافي، الا انها كانت تحرر باقلام اخرين، ولهذا لا يجوز قياس مقدرة الرصافي، وعواطفه السياسية، بجريدة الامل، وان كانت عن خبرة الجرائد المتزنة، والمستقيمة في ذلك الوقت، ولم تنحرف عن المبادئ الصحيحة والمطالبة بحقوق الشعب، الا انها صدرت لاسباب خاصة، ولم يكن للرصافي فيها سوى التوجيه والاشراف على سياستها، اما محررها الاول فهو المرحوم الاستاذ ابراهيم حلمي العمر".

وابراهيم حلمي العمر هذا من الصحفيين الاوائل، وقد ترك الصحافة الى الوظيفة، واشغل ماحظية المطبوعات، قبل ان تصير"مديرية للدعاية"!

وكان الرصافي، مثل اي شاعر آخر، وثيق الصلة بالصحفيين الذين ينشرون له قصائده وبينهم المعجب به والمعارض له، كالمرحوم الاستاذ ابراهيم صالح شكر، وكان من اقرب الصحفيين اليه كل من المرحومين عبد المغفور البدري صاحب جريدة الاستقلال، ورفائيل بطي صاحب جريدة البلاد، والملا عبود الكرخي صاحب جريدة الكرخ، ونوري ثابت صاحب جريدة حبزبوز.

وقبل ان نختتم كلمتنا هذه عن الشاعر الرصافي. لا يغيب عنا الاشادة بالرصافي الثائر، فقد نشرت له الجرائد والمجلات الكثيرة من الاراء التقدمية، ووجهات النظر الصائبة في شتى شؤون الحياة العامة والخاصة.

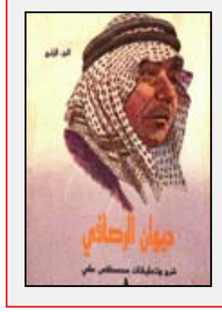

في ذكرى الرصافي

اوراق وقصائـد لم تنشـر

عبد القادر البراك

بانصرام النصف الاول من شهر اذار الحالي يكون قد مر على وفاة الشاعر الكبير المرحوم معروف الرصافي اربعون سنة، لم يقصر الادباء العراقيون في استقبال كل ذكرى وفاة سنوية له عن كتابة المقالات والتعليقات في الاشادة بادبه وشعره وعلمه وكفاحه ضد الاستعمار واعوانه، وما ينبغي للاجيال القادمة ان تفيد مما ترك الشاعر الخالد من روائع الاشعار والافكار.

على ان كل ما نشر في هذا الشان لا يتجاوز التمجيد والتخليد في حين كان المأمول، وقد زالت الظروف التي تحول دون نشر كل ما يتعلق بحياة هذا الشاعر. ان تصدر الدراسات الواسعة عنه.

ولقد حالت ظروف راوية الشاعر وصديقه المرحوم الاستاذ مصطفى علي دون ان يضيف الى عمله المشكور في تحقيق النصوص الكاملة لديوان الشاعر وشرحها التعريف بظروف القصائد التي اشتمل عليها هذا الديوان، او الاعلام الذين لهم علاقة به، خاصة وهي قصائد قيلت في ظروف تعتبر من اهم ما مر بالازمة العربية من ظروف الكفاح منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم الذي جنحت فيه حياة الشاعر الى الغروب.

وقد كان المامول من المسؤولين عن الدراسات الجامعية في القطر ان يوجهوا طلابهم الى كتابة رسائل عديدة عن الجوانب المتعددة لهذا الشاعر قبل ان تزول المعالم والاثار وقبل ان يغادر الحياة معاصروه ممن يعرفون عن الشاعر الشيء الكثير.

اقول لقد كان المأمول ان يستفيد الجامعيون من الفرصة المتاحة لهم في اكثر من مجال – لوضع دراسات عن هذا الشاعر تتكفل بالوفاء له على ما اسداه من مآثر لهذه الاجيال التي عاصرته واستفادت من اثاره. ولكن ما هو مامول ما يزال قائما اذا ما اثارت هذه الاهابة وغيرها همة ابنائنا لتلافي ما قد فاتهم من عمل مفيد لهم ولبلادهم ولتراث شاعر من اكابر شعراء امتهم العربية.

وبعد فاني اهيب بمن يملكون القدرة على البحث ان يسارعوا الى جمع ما هو متناثر من اوراق ورسائل واحاديث تتعلق بهذا الشاعر من معاصريه الاحياء فان جمع هذه المواد المتناثرة كفيل بان يتيح للاجيال الطالعة الوقوف على دراسات جديدة جادة عن هذا الشاعر تخرج من دائرة التبجيل والتمجيد الى دائرة البحث والتمحيص.

ويوسعني ان اقرر ان لدى الاحياء من اصدقاء الرصافي الكثير مما يساعد طلاب الجامعة على كتابة رسائل جامعية عن حياته في جميع جوانبها.

فلقد كان الشاعر يحتفظ باصدقاء كثيرين اودعهم الكثير من اوراقه واسراره واخباره. ولعل ما وقفت عليه مؤخراً بشكل جزءاً قليلا من تراث الرصافي المبدد لدى اصدقائه وعارفيه. وهذا الذي وقفت عليه لا يستهان به، بل ان اقل ما يوحيه هو ان حث الاخرين من الباحثين على السعي للوقوف على امثاله مما يؤلف – لو جمع ووحد – احد اصدقاء الشاعر الحميمين حيث كان الرصافي يودع لديه الكثير بما يعتز به من اثاره، حتى لقد كانت (الوصية) التي اذيعت بعد وفاة الشاعر مأخوذة من المرحوم السنوي.

وكان من بين ما اودع الشاعر صديقه قصائد عديدة بخطه حالت بعض الظروف دون نشرها، وقصائد اخرى تهيات لها ظروف النشر كما ترك لديه تصحيحات لقصائد منشورة في الصحف تختلف عما نشر في الديوان.

وها اني اقدم نموذجين من القصائد المخطوطة مما احتفظت به الفاضلة (ناهدة محمود السنوي) كريمة الرجل الكريم الذي كان موضع ثقة الرصافي في حفظ ما كان يعتز به من تراث.

عسى ان اقدم في وقت قريب بعض هذه الاثار التي قد تساعد الشباب الجامعي على ما ادعوهم الى الاضطلاع به من واجب تجاه شاعر العراق الخالد.

وهذا اضعف الايمان.

هذه القصيدة واحدة من عشرات القصائد التي نظمها الشاعر الكبير الرصافي في دار سكناه الموقت الذي اختاره في الاعظمية بعد ان دك المستعمرون البريطانيون دار سكناه في (الفلوجة) بقنابلهم خلال احتلالهم الثاني للعراق بعد اجهاضهم ثورة الجيش والشعب ضدهم في مايس ١٩٤١ بقيادة المرحوم السيد رشيد عالي الكيلاني.

ومعاني القصيدة تعرب عما كان يدور في نفوس الشعب من حقد وغضب وثورة ضد المستعمرين الذين خانوا بعهودهم ووعودهم للعرب وتنكروا لحقوقهم في الحرية والاستقلال والتقدم والتطور في جميع مضامين الحياة.

وقد نهج الشاعر في نظمها نهج اسناده الخالد الذكر (المعري) في (لزوم مالا يلزم) مع صعوبة ممارسة هذا النهج على من كان في حالة الرصافي يومذاك حيث كان يكابد الى جانب الفقر والمرض والتشرد ملاحقة الاعداء والرقباء لمن كانوا يرتادون بيته من الاصدقاء والمعجبين.

هذه المقطعات ليست هذه المقطعات جميعاه مما نظمه الرصافي اثر هجرته الى الاعظمية الا ان الشك لا يساورني في ان الاولى مما نظمه في تلك الفترة واما الثانية فانها مما سبق له نظمه قبل هذه الهجرة على انه دون هذه المقطعات مع قصائد ومقطعات مماثلة كثيرة مثلها ليودعها لدى صديقه العزيز المرحوم السيد محمود السنوي.

جريدة الجمهورية ١٩٨٥

القبر الجديد

القبر القديم

حـول تجديـد قبـر الرصافـي

اعداد/ عراقيون

كتب الاستاذ عبد الحميد الرشوي عام 1992 في احدى صحف بغداد داعياً الى تجديد قبر الشاعر الكبير معروف الرصافي ، ولم تتم الاستجابة لدعوته تلك الا بعد سنوات، ولم تنتبه الجهات الرسمية الى الامر واهميته التاريخية والنفسية، حتى تبرع احد محبي الشاعر بتجديد القبر عام 2000، ولندع التفاصيل كما كتبها الاستاذ الرشودي في اوراقه الخاصة:

... ورغم ما ذكرت فيها من الاسباب والدواعي التي توجب على المعنيين الاستجابة لتلك الدعوة المخلصة الا ان كلمتي ذهبت ادراج الرياح وكأنها نفخة في رماد او صيحة في واد، وقد جاء في تلك الكلمة: الا ان الشيء الذي يورث الاسى ويبعث على الاسف ان قبره في مقبرة الامام ابي حنيفة كاد يعفى اثره بعد ان تهشم شاهده فاصبح الاهتداء اليه من قبل عارفي موقعه عسيرا غير ميسور بله الذي يلم به اول مرة. واذكر اني قبل اربع سنوات قد صحبت الاستاذ الدكتور كامل مصطفى الشيبي لزيارة قبر الرصافي الى اللمت به عشرات المرات من قبل الا انه قد غم علي فلم اهتد اليه لولا اننا استعنا باحد عمال المقبرة فاخذ بايدينا واوصلنا اليه بعد جهد جهيد فرأيناه وقد اكتنفته القبور عن يمين وشمال واكتضت المقبرة حتى لاتكاد تجد فيها موضع قدم تقف عليه واذا كان اليوم من يستطيع الاهتداء الى قبر الرصافي فسيأتي يوم ـ وهو آت لامحالة ـ يصبح فيه اثرا بعد عين ويمسي قبر (معروف) غير معروف.

وتنشاء الاقدار ان نبدد هذا الظن ونستبدل باليأس الرجاء فقد زارني الصديق السيد محمود سلطان الدليمي وذكر لي انه الم بطرف من سيرة الرصافي واعجب بوطنيته ونزعته الانسانية ورجاني ان اصحبه لزيارة قبر الرصافي، فنزلت عند رغبته. وحين وقف على قبره وراى ما اصابه من خراب وتصدع واندثار شاهده واندراس معالمه هزته الاريحية وابدى استعداده لتجديد القبر واعادة بنائه بما يليق بمنزلة الشاعر الرصافي الذي خدم امته ووطنه وكان لسانها الناطق وبلبلها الصادح ولم يلق في حياته غير البؤس والحرمان والعقوق:

سكنت الخان في بلدي كأني
اخو سفر تقاذفته الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه
لاني اليوم في وطني غريب

هذا ولما كنت اعلم ان هذا الرجل المتبرع لم يكن من اصحاب الوفر والثراء او ملاك الاطيان والعقار وانما هو رجل يكسب قوته وقوت اولاده من عرق الجبين وتعب اليد فقد حاولت ان اثنيه عن عزمه هذا شاكرا له شهامته ووطنيته ولكنه اصر على عزمه وابى ان يتراجع عن خطته وكأنما اراد ان يكون عمله هذا كفارة للعقوق الذي اصاب الرصافي في حياته ومماته فمضى من فوره وجاء بامهر البنائين وزوده باجود المواد الانشائية من حجر الحلان والمرمر الايطالي وغيرها من المواد واعد له شاهدا على مرمرة بمقياس ١٠٠ في ٨٠ سم قام بحفرها خطاط مبدع بالصورة الاتية:

هو الباقي

انا ابن دجلة معروف بها ادبي
وان يك الماء منها ليس يُرويني
قد كنت ببلبلها الغريد انشدها
اشجى الاناشيد في اشجى التلاحين

هذا مرقد شاعر العراق الاكبر قاديبه الاشهر المغفور له المرحوم معروف الرصافي الذي افاه الاجل المحتوم فجر يوم الجمعة السادس عشر من آذار ١٩٤٥. وقد قام بتجديده قربة لله تعالى واحتسابا من خالص ماله السيد محمود سلطان الدليمي وذلك بتاريخ ١٩ مايس ٢٠٠٠.

عالج الشاعر الكبير معروف الرصافي جميع اغراض الشعر الاجتماعي الحزين ذلك الشعر الذي يعني بتصوير مشاهد البؤس والشقاء فهو في هذا الباب يعد رائدا من رواد الواقعية في ادبنا الحديث فقد انزل الشعر من عالم الترف والخيال وسخره في خدمة الانسان ووصف آلامه ومعاناته والمطالبة برفع المظالم وكبح الظالمين المتسلطين من ذوي الشوكة والسلطان اليس هو القائل قبل اكثر من تسعة عقود من السنين:

الا فاكتبوا صك النهوض الى العلا فاني على موتي به لموقعُ

وقد وجه الرصافي عناية خاصة نحو المرأة باعتبارها نصف المجتمع وحسبك نظرة عجلى ترسلها في ديوانه لترى ما افاض ازاءها من شعور وعاطفة انسانية ومطالبة برفع ما اصابها من حيف ولحقها من حرمان من حقوقها الشرعية والانسانية فقد احتفل بها اما وكرمها زوجا وبكاها ارملة وانتصر لها مهجورة ورثى لحالها مطلقة. قال مصورا هوان المرأة في مجتمعنا

عبد الحميد الرشودي

الرصافـــي.. داعيـة اصلاح اجتماعـي ودينـي

ما اهون المرأة على ذكراننا بتفضيل الذين على اللواتي
فلقد شجاني ذلها وخضوعها وقالوا ان معنى العلم شيء
ضعفت فحجتها البكاء لخصمها تضيق به صدور الغانيات
وسلاحها عند الدفاع دموعها وقالوا الجاهلات اعف نفسا
هي متعة المستمتعين وليتها عن الفحشاء من المتعلمات
كانت لزاما لايجوز مبيعها لقد كذبوا على الاسلام كذبا
فوليها عند الوزاج يبيعها تزول الشم منه مزلزلات
وحليلها عند الطلاق يضيعها اليس العلم في الاسلام فرضا
وكلاهما متحكم في امرها على ابنائه وعلى البنات
هذا يعريها وهذا يجيعها ام نر في الحسان الغيد قبلا
فما سر هذه النظرة الحانية للمراة وهذه القدسية اوانس كاتبات شاعرات
وهذا الموقف النصير المحامي عن حقوقها؟ لعل هذ وقد كانت نساء القوم قدما
السر او بعضه يكمن في تربيته الاولى يرحن الى الحروب مع الغزاة
فقد رايناه في الفصول المتقدمة كيف ان والدته قد وبعد هذا يخلص الى المطالبة بالعودة الى فهم
انفردت في تربيته و استاثرت بحبه بسبب طبيعة الشريعة والتأسي بماضي الامة والرجوع الى
وظيفة والده التي كانت تقتضيه كثرة الاسفار ماكان عليه السلف الصالح:
والغياب عن الاسرة، ففتح مترجمنا عينيه فماذا اليوم ضر لو التقتنا
على تلك الام الرؤوم تتعهده بعنايتها وتفيض الى اسلافنا بعض التفات
عليه من عطفها وحنانها وتذهب به الى الكتاب فهم ساروا بنهج هدي وسرنا
وتهيء له لوازمه وتمده بما يحتاجه من النقود، بمنهج التفرق والشتات
كل هذا قد طبع في قلبه صورة مثالية للمرأة نرى جهل الفتاة لها عفافا
الحنون. وغير خاف ان الانسان في دور التكوين كأن الجهل حصن للفتاة
والنشأة الاولى يكون سريع التأثر بالانطباعات ثم يمضي في قصيدته ويقارن بين ما كان عليه
والارتسامات التي توحيها بيئة والصبا، من هنا اهل الجاهلية من وأد البنات وبين حالتهنا اليوم
كانت نظرته الى المرأ (المأساة)لا المرأة (الملهاة) والتي هي ادهى وأمر مما كانت عليه في حالكات
فقد هز وجدانه منظر الارملة المرضعة وام اليتيم القرون ايام الجاهلية الجهلاء:
والمطلقة والمهجورة واليتيم في العيد، هذه لئن وأدوا البنات فقد قبرنا
المشاعر ملأت عليه وجدانه وحركت مشاعره جميع نسائنا قبل الممات
بانبل الاحاسيس الانسانية فأنصرف عن المرأة حجبناهن عن طلب المعالي فعشن بجهلهن
الدمية ولم يتخذ منها صنم فتنة واغراء كما مهتكات
فعل جل الشعراء، ولذا جاء غزله على قلته، غزلا ثم انظر الى موقفه من المطلقة ونقده لتلك العادة
تقليديا هو الى الصناعة والافتعال ادنى منه الى السيئة التي لا يقرها شرع ولا يرتضيها عقل،
العاطفة المشبوبة والانفعال الحقيقي الملهم. عادة القسم بالطلاق في امور لا دخل للمرأة فيها
لم يكن موقف الرصافي من المرأة موقفا مبنيا فتقوض البيوت وتضيع الامهات ويشرد الاولاد
على العاطفة والخيال كما اراد معارضوه ان قال:
ينبزوه بذلك فقد قال: وطلقها على جهل ثلاثا
وما انا في وادي الخيال بهائم كذلك يجهل الرجل الغضوب
وان كنت معدودا من الشعراء وافتى بالطلاق طلاق بت
وانما موقفه نابع من احكام الشريعة التي جهلها ذو فتيا تعصبهم عنيد
اكثر الناس فراحو يضقون على المرأة ويلزمونها فبانت عنه لم تأت الدنايا
بما هو غير لازم حتى تحولت بمرور الايام الى ولم يعلق بها الذام المعيب
آلة صماء وفي ذلك ما فيه من اضرار بالمجتمع ثم ينحى باللائمة على اولئك الجهلاء الذي اعمى
الذي ينشأ في احضان امهات جاهلات: التعصب بصائرهم وران على قلوبهم:
فكيف نظن بالابناء خيرا الا قل للطلاق موقعيه
اذا نشأوا بحضن الجاهلات بما في الشرع ليس له وجوب
وقالوا شرعة الاسلام تقضي غلوتم في ديانتكم غلوا

يضيق ببعضه الشرع الرحيب وتحايب فالخير ان نترهبا
اراد الله تيسيرا وانتم من التعسر عندكم ولا يكتفي بوصف المرأة العراقية بل يذكر حال
ضروب المرأة الشرقية بعامة وما آلت اليه فيقول:
ثم يشيد بابن قيم الجوزية وهو يشير الى كتابه ولقومنا في الشرق حال كلما
(اعلام الموقعين) الذي جاء في الجزء الاول منه زدت افتكارا فيه زدت تعجبا
قوله: وحكى غير واحد اجماع الصحابة على ان تركوا النساء بحالة يرثى لها
الحالف بالطلاق لا يلزمه الطلاق اذا حنث. وقضوا عليها بالحجاب تعصبا
فدى ابن القيم الفقهاء كم قد قل لألى ضربوا الحجاب على النسا
دعاهم للصواب فلم يجيبوا افتعلمون بما جرى تحت العبا
ففي (اعلامه) للناس رشد شرف المليحة ان تكون اديبة
ومزدجرلم هو مستريب وحجابها في الناس ان تتهذبا
ويمضي الرصافي في المطالبة بانصاف المرأة وهيهات ان تنهض هذه الشعوب المتخلفة ما لم
وتعليمها ويدعو الى السفور المحتشم.وهو بهذا تتهذب نساؤهم وتشركهم في امور حياتهم:
الصنيع يمثل ماطالب به قاسم امين (ت١٩٠٨) فالشرق ليس بناهض الا اذا
فيمصر الذي ضمن مذهبه كتابيه (تحرير المرأة) ادنى الرجال من النساء وتقربا
و(المرأة الجديدة) ذلك ان السفور المحتشم لا فاذا ادعيت تقدما لرجاله
يناقض الشرع الشريف، كما دعا القوم الى جاء التأخر في النساء مكذبا
التخلي عن النظرة الجاهلية الى المرأة تلك من أين ينهض قائما من نصفه يشكوا السقام
النظرة التي ابطلها الاسلام ومنحها من الحقوق بفالج متوصبا
والامتيازات ما تفتقر اليه كثير منتشريعات ويحدرنا الرصافي عواقب حجر المرأة وضرب
الدول الاوربية التي تدعي الحضارة والتمدن حجاب الجهل عليها وعزلها عن الحياة فأنها
اليوم. ستتعرض لنوب الدهر .لامحالة .اذا مات زوجها
ثم يوجه سهام نقده الى عادة جاهلية مستحكمة وترك لها ذرية ضعافا فقال:
وهي عدم استشارتها في زواجها وقسيم حياتها كم في بيوت القوم من حرة
والزواج عقد قائم على الرضا والقبول الا انهم تبكي من البؤس بعيني امه
يرغمونها على الزواج حتى وان كان الزوج اكبر قد لوحت نار الطوى وجهها
منها سنا طمعا في ماله او جاهه، قال: واعمل الفقر فيها ميسمه
ظلموك ايتها الفتاة بجهلهم عاب عليها قومه ضلة
اذ اكرهوك على الزواج باشيبا ان تكسب القوت وان تطعمه
فاذا رفضت فما عليك برفضه من اي وجه تبتغي رزقها
عار وان هاج الولي واغضبا وطرقها بالجهل مستبهمه
ان الكريمة في الزواج لحرة وكيف والقوم رأوا سعيها
والحر يابى ان يعيش مذبذبا في طلب الرزق من الملأمه
قلب الفتاة اجل من ان يشترى وكم فتاة فقدت بعلها
بالمال لكن بالمحبة يجتبى من بعد قد ولدت توءمه
اتباع اقفدة النساء كأنها فانقطعت في العيش اسبابها
بعض المتاع وهن في عهد الصبا؟ واصبحت للبؤس مستلمة
هذا لعمر الله يأبى مثله جف على مرضعها ثديها
من عاش ذا شرف وعاش مهذبا فاضطرها ذلك ان تفطمه
ثم يتوجه الى عادة المغالاة في المهر فعاش عيش الام لم يوفه
وينتقدها: ملبسه الدهر ولا مطعمه
ان الزواج محبة فاذا جرى ما هكذا يا قوم ما هكذا
بسوى المحبة كان شيئا متعبا يأمرنا الاسلام في المسلمه
لامهر للحسناء الا حبها فهل بكم من راحم للنسا؟
فبحبها كان الران محببا فهن اولى الناس بالمرحمه
واذا الزواج جرى بغير تعارف

موقفان مشرفان على أثر وفاة الرصافي

حارث طه الراوي

في السادس عشر من آذار ١٩٤٥ رحل شاعرنا الكبير معروف الرصافي حراً مغضوباً عليه من السلطة الحاكمة انذاك لاسيما من لامير عبد الاله الوصي على العرش الذي عناه الرصافي بقوله في تحيته لثورة ١٩٤١: "تبا لمن قد خان عرش مليكه". وبعد سنة من العاصفة التي اثارتها عليه السلطة بسبب كتابه "رسائل لتعليقات".

فمن يجرؤ، في هذا الجو المكفهر المكهرب في ان يذيع نبأ وفاته من دار الاذاعة ببغداد؟ انها المجازفة غير مأمونة لعواقب لا يقدم عليها في تلك الظروف الحالكة الا الرجل الجريء الذي يائتمر بامر الوفاء ولا يخفض الرأس للعواقب.

كان الاستاذ الشاعر الكبير ناجي القشطيني – رحمه الله – مديرا للمطبوعات في مديرية الرعاية العامة فلم يكد سمع النبأ الاليم حتى طلب من المسؤول عن الاذاعة نعي الرصافي في صبيحة يوم رحيله فاذيع نعي شاعر العراق فروعت جماهير الشعب. وزحفت الى الاعظمية لتشييع الشاعر الجريء الذي عاش حراً ومات حراً وترك دويا واي دوي في الافاق العربية ولنترك الاستاذ القشطيني يروي لنا صدى هذا الموقف المشرف الذي وقفه تجاه شاعر الشعب، فقد روى في (اللهفات – ديوان شعر ونثر" مطبعة شفيق بغداد ١٩٦٨ ص ٢٧٥ ما يلي:

".. ففي صباح ١٩٤٥/٣/١٦ طلبت من المسؤول عن الاذاعة ان يذيع نعيه ليشترك الناس في تشييعه. وفي اليوم الثاني طلبني وزير الداخلية المرحوم مصطفى العمري فرأيت عنده السيد عبد المهدي عضو مجلس الاعيان فقال لي الوزير – ان السيد يريد ان يكلمك بشأن اذاعة وفاة الرصافي فقال لي حضرة السيد: الا تعلم ان الرصافي عدوّ البيت الهاشمي.. فكيف اذعتم نبأ وفاته؟ وطلب الي ان امنع الصحف من الاطناب في تأبينه فاجبته: اننا لا نستطيع منع الصحف من اظهار شعورها نحو شخص قد مات وترك حسابه الى الله فسكت ثم خرج ممتعضاً.. هذا ما اردت بيانه الان تاركاً ما عداه الى ذمّة المؤرخين.

×××

واما الموقف المشرف الجريء الاخر فهو موقف الدكتور ابراهيم عاكف الالوسي – رحمه الله – الذي كان انذاك وزيرا للمعارف فلم يكتف بحضور التشييع – وهو ما لا يرضاه الامير عبدالاله – بل كتب افتتاحية منصفة جريئة يؤبن فيها الرصافي ويشيد بمزاياه في عالم التدريس والشعر والوطنية نشرتها جريدة "الزمان" في العدد ٢٢٧٦ من سنتها الثامنة الصادر في ١٨ آذار ١٩٤٥ تحت عنوان مثير "استاذي معروف الرصافي" وحسب ان اقتطف من هذا المقال التاريخي ما يلي:

".. ولقد كان من الطبيعي – والرصافي صاحب فكرة مثالية كبيرة – ان ينقسم الناس في فهمه الى طبقتين. هذا شان الناس في سائر عهودهم ومختلف ادوارهم.

لقد نشأ عن تباين التفكير وطرائف الثقافة التي اقتبسوها ان نظر البعض الى الرصافي كرجل ثائر على مجتمعه متمرد على مألوف الناس، خارج على القواعد ومن هؤلاء طائفة لم يرق لها هذا الي اتى به الرصافي فاجمعوا على محاربته وهذا ليس بجديد على رجال الفكر وقادته. فالمتفق عليه ان المعري لم ينل الا طغيان الناس وعقوقهم وتجرؤهم عليه واستخفافهم به وما جاءه به الجوزي المؤرخ "من التهم والافتراءات اكبر دليل.

اما الطبقة الاخرى فقد نظرت الى الرصافي كشاعر وهبته الطبيعة احساسا رقيقا وشعوراً مستفيضا، فاولى الطبقة الفقيرة دموعه وبكاءه وجزع لليتيم في العيد، والارملة البائسة ورأى ان قومه نسوا انفسهم فعمد الى اللغة يجدد شبابها ويبعث رميمها. ورأى ان الشعب العربي وقد بهرته الوان الحياة الخاطفة احوج ما يكون الى ما يحرك الهمم الهامدة ويحيي موات الامال الخامدة ويذكي عزائمه النائمة. فنشأ عن هذا الشعر الوطني الذي اتاح للرصافي ان يتغنى بامجاد الوطن وان يقف كالسنديانة الشاهقة التي لا تزعزعها الاعاصير. ويظل عاتبا لا يابه بالصدمات ولا يحفل بالمآسي التي تضعف اعظم القلوب.

وتوهن اشد العزائم، وبين هذه الحوادث التي غام بها سماء الوطن. وجد الرصافي الشاعر الفحل الذي سيظل قائما في كل نفس. باقيا مخلداً في كل قلب. حيّاً في كل خاطر وفكر..".

ويواصل وزير المعارف الجريء انذاك الاشادة الصادقة بجرأة الصريح المنصف حيث يقول:

"يلتاث عليّ القول وتضطرب نفسي اضطراباً لم القه من قبل اذ اذكر الرجل الذي وصل حاضر الامة بماضيها فكانت مهمته التوجيه، وميزة هؤلاء الكتاب او الشعراء الموجهين ان ينذلوا كل مرتقى ويسهلوا كل سبيل. ويركنوا الى الامل في كل موقف جازع.. وما عرفت الرصافي الا عاتبا جبارا! كان لا يابه لهذا الاقفاع والفقر الذي يحيطه من كل جانب ولا يحفل بالمآسي ولا يخضع للمرض او يضعف او يتخاذل، بل ان "معروف" الذي استطاع ان يهز الطغيان والدكتاتورية هو اول من ارتفع صوته في الدعوة الديمقراطية ليكون اول دعاة الحرية للعرب في العصر الحاضر.

وكم تضطرب نفسي ان اذكر الرجل وصلته بالالوسي الكبير. كم تضطرب نفسي وتذهل عندما اجد ان "معروف" قد خطا خطى السيد محمود شكري الالوسي فبهر بالمعيته، واشرق بذهنيته الخصبة، وظهر على رفاقه، ولعل القليلين هم الذين يعرفون ان الالوسي اثر في الرصافي تاثيرا بارزاً، فقد كان مثله حديد الذهن، قوي اللسان، بارع النكتة، ولكنه كان يدعم ذلك كله من الجانب الثاني بصفة العالم الصابر الذي خلق ليوجه وكافح ليبني ويعمّر.

واني اتذكر استاذي الرصافي الذي تلقيت عنه اللغة العربية في الاعدادية الملكية قبل التحاقي بمعهد الطب في الاستانة اذكر فيه اتزانه ووقاره، والله.. لقد كان التلميذ منا يفرق لطلعته هيبة ويشعر بالاحترام والطاعة ويستجمع شتات افكاره ليصغي ويسمع وقد ظلت حلاوة الفاظ الرصافي بعد هذا العهد الطويل تتماثل لي في مختلف ادوار حياتي وانها تتجدد الان فكانها قيلت اليوم.

ويختتم الدكتور ابراهيم عاكف الالوسي كلمته الرائعة بتحية مؤثرة يوجهها لاستاذه الرصافي ان دلت على شيء فانما تدل على صدق الوفاء وحب الانصاف حيث يقول:

"فيا ايها الرصافي العظيم الذي لفظناك حياً وبكيناك ميتاً.. الف تحية والف سلام..

×××

ولا يسعني وانا انفض الغبار عن هذه الوثيقة التاريخية بمناسبة ذكرى رحيل شاعرنا الحر معروف الرصافي – رحمه الله – الا ان اشيد بكثير من الاعتزاز بها الموقف الرجولي الذي وقفه الدكتور ابراهيم عاكف الالوسي الذي ذهب الى رحمة ربه في اليوم الاول من تشرين الثاني ١٩٨٥ بعد حياة حافظ فيها صاحبها على النقاء والوفاء طوال تسعين عاما.

الرصافي في أفتتاح مدرسة التفيض سنة ١٩٢٨

هكذا وضع جثمان الشاعر الثائر معروف الرصافي وحيداً في باحة جامع الامام الاعظم يصلي عليه اصدقاؤه ومريديه وراء النعش الحاج حمدي الاتطشي يوم ١٩٤٥/٣/١٦ من دون اهتمام رسمي. "التقط الصورة فخر العباسي".

الصلاة على جنازة الشاعر الكبير في الاعظمية

ان هذا الكتاب من اهم الكتب التي يتشوف اليها العراقيون بل والمسلمون في مشارق الارض ومغاربها، ولقد قال عنه الاديب المهجري الكبير الاستاذ امين الريحاني لو قدر لشعر الرصافي ان يندثر ويمحى من الوجود فان كتاب الشخصية المحمدية سيخلده على مدى الدهر ونحن اذ ننشر بعض فصول هذا الكتاب القيم نشكر سيادة الاستاذ كامل الجادرجي حيث تفضل علينا بان ننقل عن نسخته الفريدة بعض هذه الفصول الممتازة، ولقد سبق لسيادة الاستاذ كامل الجادرجي ان ابدى مكرمة اخرى حيث اهدى نسخة بخطه الى المجمع العلمي العراقي قائلا في كلمة الاهداء انه يهدي هذا الكتاب ولا يظهر للمجتمع اعميته لان المجمع يعرف قيمته او عدم قيمته ولكنه يهديه للتاريخ ولقد كان سيادة الاستاذ كامل الجادرجي من احب الناس الى صديقه الشاعر الكبير معروف الرصافي حتى انه يدعوه بـ(كامل الخيام) لان كلمة الجادرجي كلمة تركية لا تستسيغها اذن شاعر عربي كالرصافي..

كامل الجادرجي يكتب عن كتاب

الشخصية المحمدية او حل اللغز المقدس

سيادة الجادرجي يقول:

كنت اسمع ان الاستاذ معروف الرصافي الف كتابا عن شخصية محمد يتعذر نشره بالنظر لما فيه من آراء تخالف الجمهور. فرغبت في الاطلاع عليه وبقيت اسعى لتحقيق الرغبة غير اني لم اوفق رغم المواعيد التي وعدني بها اصدقائي الذين كانوا يتصلون بالاستاذ الرصافي وهو في مسكنه في الفلوجة، اذ ان الاستاذ الرصافي كان قد اعتزل بغداد واتخذ الفلوجة مسكنا منذ مدة تزيد على السبع سنوات فقررت ان اذهب بنفسي الى الفلوجة وارجوا الاستاذ اعارتي الكتاب لقراءته فذهبت وقابلت الاستاذ هناك يوم ٢٧ مارت سنة ١٩٤١ ولما اطلعت على فهرس الكتاب اعجبتني مواضيعه فاستأذنت الاستاذ استنساخه فاذن لي بذلك واعطاني قسما من اجزائه وعقب عودتي الى بغداد باشرت بتاريخ ٣١ مارت سنة ١٩٤١ باستنساخه فصادف بعد ذلك ان وقعت الحرب بين الحكومة العراقية والحكومة البريطانية في اوائل مايس ١٩٤١ فاضطر الاستاذ في ترك الفلوجة وايداع كتبه ويضمنها الاجزاء الباقية من الكتاب – الى شخص يأتمنه خارج بغداد فسبب ذلك فترة في الاستنساخ غير ان الاستاذ بعد ان عاد الى بغداد واستقر فيها واستعاد الاجزاء الباقية اودعها الي جميعاً للاحتفاظ بها كامانة والاستمرار في الاستنساخ وحينئذ عدت فباشرت بنسخة كلما سنحت لي الفرصة حتى انتهيت منه بتاريخ ٣١ آب ١٩٤١ وعلى هذا قد استغرق نسخ الكتاب خمسة اشهر، ان النسخة التي نقلت عنها الكتاب هي النسخة الاصلية التي كتبها المؤلف بخطه وهي مؤلفة من ٤٣ كراسا وقد اعتبر المؤلف كلا منها جزءاً ان معظم تلك الاجزاء على نسق واحد وحجم كل واحد منها ٢٣ سم طولا و١٧ سم عرضا وكل جزء من هذا الحجم يحتوي على ٣٠ ورقة الا جزأين وهما الجزء الثالثون والجزء الواحد والثلاثون فكل منهما يحتوي على ٦٠ ورقة وحجم كل واد منها ٢٠ سم طولا و١٦ سم عرضاً.

لم يملأ المؤلف كل ورقة من هذا الاجزاء وجهيها بل ترك احدهما خاليا ويظهر انه عمد الى ذلك كي يترك مجالا للزيادة ولكتابة الهوامش فيما بعد وقد اضاف بالفعل في محلات متعددة من الكتاب بعض الزيادات ايضاحا للبحث حينا وزيادة فيه حينا آخر كلما احس ان البحث يحتاج الى ايضاح او الى زيادة وقد ادرجت كل تلك الزيادات التي اضافها المؤلف في صلب الكتاب الذي استنسخه ولكن لأجل تفريقها وضعت كل واحدة منها بين خطين.

المؤلف ولكنه اضاف ان النسخة لم يتكمل بعد اذ ينقصها شيء قليل من آخر الكتاب، والحق يجب ان يقال ان هذه النسخة (وان لم تكن اصح نسخة) بالنظر الى ان الاستاذ مصطفى علي من اخص اصدقاء المؤلف ومن المعجبين بشعره وادبه وهو يعد من المتضلعين في اللغة العربية فمن المستبعد ان تصدر منه اغلاط لغوية وغيرها في اثناء النقل.

بغداد ٣١ في آب سنة ١٩٤١.

يقول الرصافي في كتابه الشخصية المحمدية تحت عنوان

اعظم معجزة للرسول الاعظم

ما يلي:

لا ريب ان نشأة محمد بن عبد الله (ص) المعلومة وقيامه باعباء النبوة، وما لقيه فيها من المصائب وما اقتحم في سبيلها من المتاعب والمشاق وما أتاه الله من عزم شديد وخلق عظيم وعقل راجح حصيف وما اوجده بقرآنه العظيم وبسيفه من جمع الاشتات المترامية وشد الاواصر المتفككة وتوحيد العناصر المتفرقة حتى اوجد بها من العدم امة ناهضة في سبيل الحق والحرية فقامت قومة رجل واحد تدعو الى الله حتى دوخت البلاد وخضع لها الحاضر والباد وامتدت في اقطار الارض شرقا وغربا في مدة يسيرة لا تتجاوز نيفا وعشرين سنة لهي المعجزات الكبرى التي تتضاءل دونها المعجزات وان هذه المعجزة على عظمها وجلالها لم تقع الا وفق ما جرت عليه سنة الله في خلقه ولو لا ذلك لما كانت معجزة ولا دلت على ما لمحمد من مقام رفيع وفضل عظيم غير ان الجامدين يعمون عن هذه المعجزة فلذا تراهم يهيمون في وادي الخرافات يبتغون بها المعجزات الدالة على صدق نبوة محمد (ص) وعظم شأنه كاشقاق القمر وتسليم الحجر وكمجيء الشجرة اليه تشق الارض شقا حتى قامت عليه تظله لما نام في الشمس وكشكوى البعير اليه وتكليم الحمار اياه وسجود الغنم له ونطق الغزالة بالشهادتين وشهادة الذئب له بالرسالة الى غير ذلك من الامور التي هي مخجلة اكثر مما هي مضحكة.. من الحقائق التي جاء بها القرآن العظيم واثبتها العلم في هذا الزمان ان لخالق الكائنات الاعظم سنة في خلقه لا تقبل التبديل والتغيير قال في سورة الاحزاب (ولن تجد لسنة الله تبديلا) وفي سورة الملائكة (ولن تجد لسنة الله تحويلا) غير ان اهل العلم في زماننا يعبرون عن سنة الله بالنواميس الطبيعية وهي جمع ناموس كلمة معربة تستعمل في العربية بمعنى الشريعة والطريقة وهم – اي اهل العلم – في هذا العصر يعنون بالنواميس الاصول والطرائق التي يجري عليها العالم بتفاعله في الكون والفساد على وجه لا يقبل الانحراف ولا الانعكاس كناموس الجاذبية العامة مثلا فنواميس الطبيعية عبارة اهل العلم وسنة الله في عبارة القرآن العظيم شيء واحد في المعنى وان اختلفا في اللفظ.

واذا كانت سنة الله لا تقبل التبديل والتحويل كان من المحال ان نتصور القدرة الربانية المطلقة خارجة عن حدود سنة الله لن القدرة المطلقة هي سنة الله نفسها فكيف يعكس تصورها خارجه عن نفسها اذ يكون معنى ذلك ان القدرة الربانية المطلقة تستطيع ان تحالف القدرة الربانية المطلقة.

وهذا هو الحال بعينه ولذا قال بعض علماء الاسلام "وهم المعتزلة" ان قدرة الله لا تتعلق بالمحال ولا يلزم من قولهم هذا ان قدرة الله محدودة غير مطلقة وان الله غير قادر على المحال كلا! لان المحال هو الخروج عن سنة الله التي هي قدرته المطلقة نفسها وليس للعجز معنى بالنسبة الى القدرة المطلقة، اذ لا يعقل بوجه من الوجوه معنى لقولنا ان القدرة المطلقة عاجزة عن الخروج عن نفسها اي عاجزة عن ان تخالف نفسها فمن الجهل ان يقال ان الله عاجز عن ان يخلق مثله.

اذا تدبرت هذا وفهمته جيدا فقد علمت ان المعجزة الخارجة عن حدود سنة الله من الامور المستحيلة التي لا تتعلق بها قدرة الله. وانما المعجزة الصحيحة الحقه هي المعجزة التي تقع في حدود سنة الله كالمعجزة التي اتى بها محمد رسول الله وهي التي صورتاها لك بصورة مجملة في كلامنا المتقدم آنفا والا فكيف يصح ان يقال ان محمدا عليه السلام قد أتى بأمر اعجز الناس عن الاتيان بمثله اذا كان ذلك الامر الذي اتى به ليس من الامور التي تتعلق بها قدرة الناس ولا قدرة الله.

فالمعجزة الحقة التي يصح ان تكون معجزة للناس هي ما ذكرناه آنفا من الامور الواقعة وفق سنة الله والتي قام بها محمد (ص) في حياته النبوية وكذلك القرآن العظيم فانه يصح ان يكون معجزة لا لانه من الامور التي تتعلق بها قدرة الناس فاذا عجز الناس عن الاتيان بمثله تحقق اعجازه وثبت بذلك صدق مدعاه وان ما ذكره الغافلون الجامدون من المعجزات الخارجة عن حدود سنة الله فشيء لا وجود له الا في اوهامهم.

وتحت عنوان (محمد ذو عقلية ممتازة) كتب الفقيد الرصافي يقول:

لا نريد هنا ان نتكلم عن العقلية العربية في الزمن الجاهلي فان ذلك مما يستنتج استنتاجا من اقوالهم وافعالهم واخبارهم واشعارهم ووقائعهم وحروبهم ومن حياتهم اليومية وكل ذلك معلوم لمن قرا كتب القوم وتتبع آثارهم وانما نريد ان نتكلم عن عقلية ممتازة فاقت العقلية العربية في ذلك الزمان وصاحب هذه العقلية هو محمد بن عبد الله (ص) صاحب القرآن العظيم وقريع الانبياء الذين جاؤا بالشرائع والاديان فنقول:

جاء في كتب السير انه كان دائم الفكر متواصل الاحزان، وجاء فيها انه كان يحب الخلوة فكان يذهب الى جبل حراء فيبقى وحده في غاره الايام والليالي، ولا شك انه لم يكن له في ذلك الغار شغل عن التفكير وما يدل على انه كان من المفكرين قوله في القرآن "ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب" والقرآن العظيم كله يدل على ما كان له من تفكير عميق في الخلق وخالق الخلق، فهذه الحالة منه اعني طول تفكيره وخلوته لاجل التفكير هي ظاهرة من ظواهر عقله الفطري وهي تدلنا على انه ممن تغلب عقله الفطري على عقله المكتسب او هو يتقيد منه بما يقبله عقله الفطري المطلق، فهو اذن ذو عقلية ممتازة على من حوله من الناس.

ثم ان العقل الفطري من حيث انه مصدر للحجة يقال له عقل ومن حيث انه مصدر للانتباه والفطنة وسرعة الفهم يقال له ذكاء وقد يكون العقل الفطري في الانسان قويا في احدى هاتين الحيثيتين دون الاخرى وكذلك كان عند محمد (ص) وذلك ان العقلية المحمدية مهما كانت ممتازة كما قلنا آنفا فان امتيازها انما كان بالتفكير بسبب تغلبها على العقلية المكتسبة ولكنها مع ذلك كانت في جهة انها مصدر للانتباه وسرعة الفهم اقوى منها في جهة انها

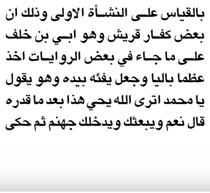

ذلك في القرآن محتجا عليه بالقياس على النشأة الاولى فقال: "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم، قل يحيها الذي انشأها اول مرة" والفرق بين النشأة الاولى والنشأة الاخرى عظيم لن النشأة الاخرى وهي البعث تكون بان يقوم الناس من قبورهم كما يقومون من فراشهم بعد النوم كما جاء في القرآن الكريم في وصف البعث "يخرجون من الاحداث كأنهم جراد منتشر" والنشأة الاولى ليست كذلك بل تكون وفق ما تقتضيه سنة الله في الخلق وسنة الله هي النواميس الطبيعية.. الخ.

وكتب الفقيد الراحل بكتابه المذكور تحت عنوان "ذكاؤه" ويقصد ذكاء الرسول الاعظم ما يلي:

هذا ما اوردناه من الشواهد على العقلية المحمدية من حيث مصدر للحجة وهنا نورد لك بعض الشواهد عليها ايضا من حيث انها مصدر للانتباه وسرعة الفهم.

كان محمد (ص) شديد الفطنة شديد الانتباه لما يجري حوله من الامور فلا يفوته من الذين حوله همسهم ولا ما يبدو على وجوههم من علامات السخط والرضا وكان جل نظره الملاحظة. يراقب اصحابه وينظر الى من حوله بمؤخر العين فتراه ينظر وكانه لا ينظر وكان شديد الفراسة اذا نظر في وجه احد يكاد يعرف ما في ضميره فمما يدل على ذلك ما جاء في سيرة ابن هشام قال بلغني عن يحي بن سعيد ان النبي (ص) حين افتتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو الله وقد احدقت به الانصار فقالوا فيما بينهم اترون رسول الله اذ فتح الله عليه ارضه وبلده ليقيم بها فلما فرغ من دعائه قال ماذا قلتم، قالوا لا شيء يا رسول الله فلم يزل بهم حتى اخبروه فقال النبي: معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم لا شك ان الانصار انما قالوا فيما بينهم ما قالوه عن اسف وحزن على فراق رسول الله اذ ظنوه سيقيم في مكة ويترك المدينة والنبي لم يسمع مقالهم وانما كان ينظر في وجوههم فعرف مما كان يبدو في ملامحهم من امارات الخوف والقلق انهم انما كانوا يتكلمون في امر يتعلق به وانه امر مزعج لهم فسالهم عنه والح عليهم حتى اخبروه به ومن هذا القبيل ماجاء في سيرة ابن هشام ايضا ان رسول الله دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره ان يؤذن، وابو سفيان بن حرب وعتاب بن اسيد لقد اكره الله اسيدا ان لا يكون سمع هذا فيسمع منه نظرنا في الحجج القرآنية وجدناها ليست في الدرجة التي تناسب ذكاء محمد عليه الصلاة والسلام.

فمثلا يريد اثبات النشأة الاخرى بالقياس على النشأة الاولى وذلك ان بعض كفار قريش وهو ابي بن خلف على ما جاء في بعض الروايات اخذ عظما باليا وجعل يفته بيده وهو يقول يا محمد اترى الله يحي هذا بعد ما قدره قال نعم ويبعثك ويدخلك جهنم ثم حكى مصدر للحجة ومعنى ذلك ان محمداً (ص) كان ذا عقل كبير الا ان ذكاءه كان اكبر من عقله واصبح شيء نرجع اليه في اثبات ذلك هو القرآن فنحن اذا نظرنا في الحجج القرآنية وجدناها ليست في الدرجة التي تناسب ذكاء محمد عليه الصلاة والسلام.

فمثلا يريد اثبات النشأة الاخرى بالقياس على النشأة الاولى وذلك ان بعض كفار قريش وهو ابي بن خلف على ما جاء في بعض الروايات اخذ عظما باليا وجعل يفته بيده وهو يقول يا محمد اترى الله يحي هذا بعد ما قدره قال نعم ويبعثك ويدخلك جهنم ثم حكى

مجلة الوادي ١٩٥٩

كتب الشاعر الرصافي عن الطرب والمطربين؟

ما رأي الشاعر بالمطربة ام كلثوم والمغنية منيرة الهوزوز؟

صادق الأزدي

في يوم ١٦ من آذار سنة ١٩٤٥ فوجئت بالأستاذ ناجي القشطيني مميز المطبوعات العربية في مديرية الرعاية العامة التابعة لوزارة الداخلية. فوجئت به وهو يبحث عن سيارة تقله الى منطقة الاعظمية – رحمه الله – وعندما سالته (الى اين تريد..) اجابني! اريد الدار التي عاش فيها الرصافي.

فقدمات في الصباح الباكر من هذا اليوم.. اتأتي معي لنشارك في تشييع جثمانه..

وهكذا ذهبنا معا الى الاعظمية في احدى السيارات العامة، وترجلنا واتجهنا نحو الدار التي مات فيها الرصافي شاعر العراق الكبير. وادخلونا الى الغرفة التي كان يرقد فيها وتأملت اثاثها المتواضع و(التنكة) التي كانت موضوعة في اناء معدني وخرجنا من الغرفة لنقف مع المشيعين الذين لم يكن يزيد عددهم على العشرة اشخاص من اهل الجوار.

وسألني القشطيني الا نستطيع التقاط صورة فوتغرافية للرصافي وهو على فراش الموت..

فاجبته نعم ولكن كيف اتصل بالمصور (ارشاك) فقال سابحث لك عن هاتف.

وجاءني بعد قليل واخبرني بانه عرف ان دارا غير بعيدة عنا فيها جهاز هاتف وقد اتصل باصحاب الدار فلم يمانعوا من استعمال هاتفهم للاتصال بالمصور ولما فعلت قال المصور ارشاك انه على مع موعد سابق وسيرسل الى احد الذين يعملون معه فاتفقنا على ان نستقبله في مكان معين من الاعظمية وهكذا كان الا اننا فوجئنا بعد وصول المصور بان جثمان الرصافي قد تم تكفينه بعد ان غسلوه وبعد مشاورات قمنا بفتح الكفن من ناحية الوجه والتقطنا له الصورة التي نشرتها في احد اعداد مجلتي – قرندل – وكنت قد نشرتها في صفحة المحليات من جريدة (الاخبار) التي صدرت صباح اليوم التالي – السبت -.

والرصافي على كثرة اهتمامه بالشؤون السياسية وانغماسه في مشاكل السياسة ومشاكلها فقد كان انسانا من سائر الناس.. فهو يحب ويكره يخاصم ويصادق يفرح ويحزن يجد ويهزل وكان ينفعل فيندفع ويرى الدنيا وناسها بمنظاره الخاص فيحسر او يسيء. انه ليس اكثر من انسان له احاسيسه ووجهة نظره وانطباعاته وانفعالاته فيجب ان لا ننكر عليه الاقدام على كل ما يفعله غيره بزعم انه شاعر فالشاعر ليس الا من نفس هذه الدنيا اليوم وغدا.. والى الابد.

واهتمامات الرصافي في السياسية لم تكن لتحول بينه وبين الاستمتاع بالغناء الشجي والرقص الرقيق، وهو لم يكن يتظاهر بانه قد انصرف بكليته الى مشاكل الحياة بل قالها صراحة انه امضى ليلة من لياليه حتى وهو لم يترك العمامة في مرقص بمدينة الاستانة (استانبول) فقد نظم سنة ١٨٩٨ قصيدته (ليلة في ملهى) ومما قال فيها وهو يصف الملابس التي كانت ترتديها احد الراقصات.

قصرت منه كمة عن يديها
واطالت الى النهود الجيوبا
هو زي يزيد في الحس حسنا
من تربى به وفي الطيب طيبا

وكان الرصافي من المعجبين بالمطربة ام كلثوم وقد زارها عام ١٩٣٦ في دارها بمدينة القاهرة واقامت له حفلة تكريمية وقد سبق له ان خباها عندما اقامت اولى حفلاتها في بغداد سنة ١٩٣٢ ومما قاله فيها.

ام كلثوم في فنون الاغاني
امة وحدها بهذا الزمان
هي في الشرق وحدها ربة الفن
من فما ان للفن رب ثاني
داع من صوتها اليوم صيت
عم كل الامصار والاكوان

نفهم من كل هذا الذي اوردناه ان الشاعر معروف الرصافي كان يطرب للغناء لجيد وينفعل مع الراقصة البارعة، وهو هو يقول في قصيدة له عنوانها (ليلة في دمشق).

صوت كان الغانيات
اعرنه هيف الحضور
سرى الهموم عن الفؤاد
بجوف حالكه الستور
والعود ينطق باللحون
بلهجتي (بمّ) و(زير)
يرمي به الصوت الرخيم
على الرجى لمعات نور
يحكي الزلال لدى العطاش
او الثراء لدى الفقير

وماذا عن علاقات الرصافي بالوسط الفني في بغداد..

بالعودة الى ديوان شعرها نجد انه لم يتحرج من ان ينظم قصيدته المشهورة (اليتيم في العيد) في رثاء شاب اسمه (نعيم الحلبي) كان يعمل في احد ملاهي بغداد في اعقاب العهد العثماني، ذلك ان الملاهي البغدادية القليلة العدد كانت تعمد الى استخدام الفنية والشباب ليؤدوا الرقصات وهم يرتدون الملابس النسائية وكان (نعيم) احد اولئك الشبان وقد اطلق الرصاص عليه رجل اسمه (منيب الباجه جي) فقال الرصافي في رثائه:

قضى والليل معتكر بهيم
ولا احد لديه ولا رحيم
تغن من غير باكية وباك
ومن يبكي اذا قتل اليتيم

الذي يجب ان نذكره ونحن نتحدث عن (نعيم) هو ان قاتله ابراهيم منيب قد حكم عليه بالسجن ولما افرج عنه كان قد تعلم نظم الشعر!

وكانت للرصافي في عنفوان شبابه ورجولته علاقات بعدد غير قليل من المطربات والمطربين فقد عرف سلمية مراد وزكية جورج وبدرية انور ومنيرة الهوزوز ورشيد القندرجي ومحمد القبانجي وغيرهما وغيرهن! واكثر الذين احبوا شعر الرصافي يذكرون ما قاله عن المطربة منيرة الهوزوز وقد نشرت تلك المقولة في ديوانه تحت عنوان (مليكة غناء العرب).

والسؤال الان هل كتب الرصافي معبرا عن وجهة نظره في الغناء والموسيقى؟ ما بين يدي من (دواوين الرصافي وما كتب عنه بعض محبيه ومنتقديه لا يشير الى ذلك الا ان مجلة (الهلال) القاهرية تقول في عددها الصادر في الاول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٧. (ان الشاعر الرصافي قد كتب يعرب عن وجهة نظره في الامرين الغناء والموسيقى ونشرت المجلة ذلك الذي نسبته اليه تحت عنوان (الاغاني – من مذكرات شاعر العراق معروف الرصافي) وقالت في مقدمة ما اقتطفته من تلك المذكرات (ترك المرحوم الاستاذ معروف الرصافي الشاعر العراقي المشهور بعض الاثار الخطية غير المطبوعة وبينها كتاب بعنوان – خواطر وافكار – اودعه بعض الخواطر والافكار في الفن والادب والاجتماع وهذا فصل منه في موضوع – الاغاني).

ومن طريف ما ورد في ذلك الذي نشرته (الهلال) وقالت انه من مذكرات الرصافي قوله (وقد قيل لي ما رايك في المغني المشهور محمد عبد الوهاب؟ فقلت (فنان ولكن.. وقيل لي (فما تقول في ام كلثوم؟) فقلت:

ام كلثوم في فنون الاغاني
امة وحدها بهذا الزمان

ثم يواصل الرصافي الكلام فينتقل الى الموسيقى العربية فيقول:

– وقيل لي ماذا تقول في الموسيقى العربية في عصرنا هذا؟

فقلت ان الموسيقى الالية في مصر ارق من الموسيقى الصوتية باستثناء ام كلثوم ثم تاتي بعدها في المرتبة الثانية الموسيقى الالية في سوريا فهي ايضا ارقى من الموسيقى الصوتية هناك ثم تاتي بعده في المرتبة الثالثة الموسيقى الالية في العراق فهي ارقى ايضا من الموسيقى الصوتية. فالموسيقى الصوتية في جميع الاقطار العربية متأخرة في عصرنا هذا عن الموسيقى الالية.

جريدة الاتحاد ١٩٨٤

مع أم كلثوم في مصر سنة ١٩٣٦

الرصافي شيوعياً

علي حسين

اذا مشى الرصافي في الشارع فلا احد يستوقفه، وكان هو لايرغب في ذلك، فهو يمشي واضعا يد يه وراء ظهره، مندفعا الى امام، لايعرف احد اين سيذهب الا ان المقربين منه يؤكدون لك بانه سيمر على مكتبات سوق السراي، لينتهي عند المكتبة العصرية، يجلس قريبا من صاحب المكتبة محمود حلمي، ويلتف حوله بعض رواد المكتبة يسالونه ان كان يعرف ان كتابا لفلان قد ظهر،

وفي يوم من الايام اتى له صاحب المكتبة بكتاب"راس المال"فقد كان حلمي يعرف جيدا ان صاحبه الرصافي مشغول هذه الايام بالافكار الاشتراكية وان القصيدة التي يجد فيها هذا النوع من الافكار اثارت عليه زوبعة من الانتقادات:

كل ما في البلاد من أمـــوال
ليس إلا نتيجـة الأعمـال
إن يطيب في حياتنا الاجتماعية
عيش فالفضل للعمـــال
إن الحق مذهب الاشتراكيـة
فيما يختص في الأمـــوال
قولوا معي مقالا رفيع الصوت
فلتحيـــا زمـرة العمـال

كان الرصافي مكتويا بنار أسئلة حارقة تؤرق ذهنه وكان مدركا انه يواجه واقعا مضطربا انحاز فيه منذ البداية للمسحوقين والمعدمين وذهب به هذا الانحياز إلى ان يجاهر علنا في مجلس النواب عام ١٩٣٧ حين قدم عدد من النواب مشروعا لقانون الاصلاح الزراعي اعتبره آخرون قريبا من مبادئ وسياسات الدول الشيوعية: "إني شيوعي لكن شيوعيتي إسلامية ، الشيوعية التي جاء بها محمدبن عبد الله"ص" لأنها وردت في القرآن في قوله تعالى (و في أموالهم حق للسائل و المحروم) فالضمير هنا يعود الى الاغنياء فهذه كلمة حق وكل فقير له حق في مال الغني وكان صلوات الله عليه وسلامه يرسل عماله لجبايه الزكاة ثم يقول: خذوها من اغنيائهم وردوها الى فقرائهم نسألتكم بالله هل ان الشيوعية غير هذا، فارجوا من فخامة رئيس الوزراء ان يعرفني الرجال الذين يريدون ان يقاوموا هذا المبدأ السامي بالجهل""الرصافي خطيبا لعبد الحميد الرشودي".

ويذهب بعيدا في افكاره حين ينادي العراقيين قائلا:

للانكليز مطامع ببلادكم لا تنتهي الا بان تتبلشفوا

في العام ١٩٤٠ يلتقي الرصافي بعبد الفتاح ابراهيم الذي كان قد قرأ راس المال بنسخته الانكليزية عام ١٩٢٩ اثناء دراسته في واشنطن، يقول إبراهيم: حصلت نقطة التحول عندي نحو الاشتراكية حين اطلعت على كتاب راس المال خلال اعدادي لاحد البحوث الدراسية حول ثورة ١٩١٧ البلشفية".

ويسال عبد الفتاح ابراهيم الرصافي ما الذي استهواه بالاشتراكية؟ فيكون جوابه: "انها وعد بمجتمع، لا سيد فيه ولا مسود،، يأخذ كل من فيه حقه بغير زيادة، ويعطي فيه كل حقوق الآخرين بغير بخس، وينتهي فيه طمع الطامع، كما ينتهي فيه حب الرئاسة ونزاع المتنازعين على مراكز التصريف والتدبير، فلا يحق لأحد أن يعتبر نفسه أنه أحق بهذه المراكز من أخيه".

ونتساءل هل قرا الرصافي راس المال؟ اعتقد ان الجو الفكري انذاك وشهية الرصافي للمعرفة اتاحت له ان يطلع على كتابات الكثير من مفكري العصر وكان كارل ماركس واحدا منهم.

تشكلت آراء الرصافي في خضم هذا المناخ فجاءت جريئة متمردة، لأجل ذلك تألبت عليه الرجعية بشكل خاص فتم التشهير به ونسج الحكايات المخزية عنه لتصبح حكايته الاكثر مأساوية في تاريخ الفكر العراقي، فقد انشغل المؤرخون بالحديث عن الصغائر متناسين ان للرجل أفضالاً كبيرة، فراحوا يكتبون القصص الخيالية عن شيخ في الاعظمية يبيع السجائر واهملوا رجلا اشعل حرائق في الفكر العربي والاسلامي، لتصبح حكاياتهم في النهاية اشبه بالحديث عن شكسبير الذي كان يتشاجر مع زوجته، وبتهوفن الذي استدان من احد الاصدقاء ولم يسدد ديونه، وعن ابي العتاهية وبخله وابن الرومي وتشاؤمه، لو ولد الرصافي خارج العراق لكان شيئا شبيهاً بجان جاك روسو.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
عدنان حسين
نائب رئيس التحرير: علي حسين
الاخراج الفني: نصير سليم
طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون
WWW. almadasupplements.com

في دائرة الضوء

معروف الرصافي

سبعون عاما في السياسة . كل شعره بيانات في الحاكم والمحكوم ، وظاهرة الدولة ، حتى إنك لتنتزع حلما خفيا من أعماق بياناته تلك : أن يكون هو رجل الدولة !

حتى المبعوثان «المجلس النيابي» لم يسلم من ضيقه ، على كونه منصبا سياسيا لأنه ، حاكما ، أكثر منه وسيطا بين الحاكم والمحكوم . هكذا نراه في مدة نيابته ، يخاطب محاوريه بعلوم اللغة وآدابها ، أكثر مما يخاطبهم بالسياسة ومصطلحها ، وكان ذاك تعبيرا عن السياسة بنفيها

الرصافي «حاكم» في غده ، و«محكوم» في يومه . أما الغد فلم يات . وأما اليوم فكان نظرا شقيا في ذلك الغد !

وهكذا مات سياسيا ، قبل موته سريريا عدة مرات . وأماتته الحياة موتا اقتصاديا .

براغماتي ، يقود عساكر نظمه في خرائط تدور على نفسها . فإن تعبت عساكر نظمه ، انتقل إلى عساكر نثره : تعليقات ورسائل ووصايا .

كائن سياسي : لغته موزونة .

لاينتمي إلى الكلاسيكية المجددة ، كما يزعم نقاد الجادة ، ولا إلى الكلاسيكية المقلدة ، كما يزعم نقاد التجديد .. وإنما هو واحد من أكبر المحدثين في الواقع !

د . مالك المطلبي
رسم علي المندلاوي

مجلة الف باء ١٩٨٣

عراقيون
من زمن التوهج